

سيف الزمان

وجميلة

جمال شاهين

منشورات المكتبة الخاصة

قصص حكايات

الفوارس

١٥

سيف الزمان وجميلة

جمال شاهين

٢٠٠٢

منشورات المكتبة الخاصة

٢٠٢٣/ ١٤٤٤



قصص وحكايات الفوارس

جمال شاهين

سيف الزمان وجميلة

جمال شاهين

سيف الزمان وجميلة



الملك خصيب

كان الملك خصيب بن مرار يجلس في ديوانه الكبير بين أمرائه وأعوانه ، وبين يديه وزيره الأكبر غراب بن عقاب ، وكان القوم يتحدثون ويتهامسون ويتنادرون ويضحكون ، والملك ينظر إليهم بصمت وكآبة ، ولا يشاركهم مرحهم وفرحهم وتندرهم مما لفت نظر الوزير غراب فاقترب منه قائلا : مولانا الملك ما الأمر ؟!

حدق الملك الساهم بوزيره مرة أو مرتين ، ثم هزّ رأسه بضع مرات ، ولم يرد ، فكرر الوزير السوأل ظانا أن الملك لم يسمعه جيدا ، فعندئذ قال الملك بعد تنهد عميق : آ .. يا وزيري .. إنني مهموم .. حزين !

فتظاهر الوزير بالحزن ، وقال بحزن ورقة : ويحي !! ما الذي يكدر ويحزن مولانا الملك ؟! عسى أن نفرج همه وحزنه .

فتنهد الملك مرات عدة ثم همس : ولدي الكبير ما زال رافضا للزواج يا أبا عقاب .. وأنا أرغب أن أنكحه امرأة قبل هلاكي ؛ لأرى أحفادي وأسعد بهم .. أخشى أن ينقطع نسلنا يا وزيري .. فولدي الصغير كما تعلم مريض وعليل ، ولا يستطيع الإنجاب رغم أنني كما تعلم أنكحته مرتين ، فلم يفلح بالإنجاب ، ولم يقدر له الله العظيم ذلك ، وأما الأمير قيس فقد تجاوز الثلاثين سنة وما زال مصرا ورافضا لفكرة الزواج .

فقال الوزير مواسيا مولاه الملك خصيب : لا تحزن يا مولاي ! .. التدبير كله بيد الله .. وأنا تحدثت أكثر من مرة مع ولدك الأمير قيس في هذا الأمر، وهذه الرغبة ؛ ولكنه عنيد .. وقد تكلم معه ولدي صقر، وهو صديقه ورفيقه وخليله ، وأظهر لنا تعجبه من عدم ميله للنساء والجميلات .

فقال الملك: وهذا ما يخيفني ويزعجني !..أخشى أن تندثر سلالتنا يا أبا عقاب ، ويزول ملكنا ويتحول لأبناء عمومتنا .

فقال الوزير : سوف أتكلم مع الأمير قيس مرة أخرى ، إئذن لي الآن بزيارته ، فهو الآن يلعب في قصر الأقواس ، فكما علمت من ولدي صقر أنهما اليوم يجلسان في القصر ، فهما يستعدان لرحلة صيد في البراري والوديان .

فهمس الملك والحسرة تملأ كيانه : ما أكثر ما يذهب للصيد !! يا ليته يصيد غزالة إنسية ! حاول أيها الوزير الشجاع لعل الأمر يجري على يديك .

فسلم الوزير على الأمراء ، وغادر الديوان ، وركب جواده وتبعه خادمه ، ومشيا نحو قصر الأقواس ، وهذا القصر من القصور الكبيرة والقديمة في بلاد الملك خصيب بن مرار ولما دخل الوزير ذاك القصر علم أن الأمراء والفرسان قد خرجوا للصيد مبكرين ، فتردد الوزير قليلا مفكرا ، ثم تابع المسير وراء الأمير قيس وأصدقائه الفرسان ، ومع المساء وقبل حلول الظلام أدركهم ، ولما علموا بقدومه جفلوا وخافوا وظنوا أن أمرا سيئا قد حدث للملك ، فلما طمأنهم على حياة الملك وعافيته عاد الهدوء لأعصابهم ونفوسهم ، وبعدما أكلوا ما أعده لهم الخدم والغلمان ، قال قيس : ما الذي دفع بوزير أبينا الملك للحاق بنا ؟! لابد أن الشأن خطير!

فقال الوزير : جئت للحديث معك أيها الأمير ..

وتحدث الوزير عن حزن أبيه وهمه وغمه وقلقه على الملك وعلى الحكم ؛ ولما انتهى من شرح مراده للأمير الوارث لعرش بلاد الرايات قال الأمير قيس : ألا يريد أبي أن يبقى الأمل في صدري .. يا عماه ؟! أخاف إن تزوجت ولم أنجب الولد المطلوب ، فماذا يحل بي ؟ بل ماذا يحل بأبي ؟! الملك بيد الله يؤتيه من يشاء .. ها هو أبي تزوج عددا كثيرا من النساء ولم ينجبن إلا البنات .. وذا أخي المسكين سعيد تزوج امرأتين ولم يخلفن منه .. فظهر أنه عقيم ..فلماذا لا يبقي الأمل في نفسي يا عماه ؟!.

وأخذ الوزير يتحدث ثانية عن حزن وغم وكرب الملك وميله الشديد ليراه متزوجا ، وبعد إلحاح شديد وحديث من الأمراء وضغط من الجميع على الأمير الفارس قيس بن خصيب قال الأمير مستسلما : لقد سمعت كثيرا أيها الأسياد ! .. وأنا سأحقق هذا الحلم للملك خصيب

ابن مرار وأجرب الزواج .

فصفق الجميع من الفرح ، وارتفع صوتهم بالسعادة والغبطة ، فهم يعلمون كم تؤرق هذه القضية سيد البلاد وملكهم المحبوب ! ولما خيم عليهم الصمت من جديد ، فقال الأمير قيس : يا وزير بلادنا !.. أنا سأحقق رغبة أبي بالزواج ؛ ولكني لن أتزوج أيّ فتاة ؟ .. لقد سمعت بفتاة جميلة حسناء يضرب بها المثل في الحسن والجمال والبهاء ..

لمعت وتوهجت عيون الجميع على وهج النار ، فقال الوزير بتردد وبطء : من هي هذه الحسناء يا ابن الأجواد ؟!

فعلق صقر بن غراب قائلا وهو متذكر لماض قريب : أخشى يا قيس أن تكون هذه الحسناء الفتاة التي رأيناها قبل شهور في وادي الثعالب ؟!

فصاح قيس وهو يتظر لصديقه صقر : نعم .. هي يا صقر .. قلت يومها لنفسي إن فكرت بالزواج لن أتزوج إلا من تلك الفتاة أو مثلها إنها جميلة وشجاعة .

فقال صقر : ولكنها عاشقة ! .. ألم يقل لنا الفارس الذي كان يرافقها إنه يحبها ، وهي ابنة عمته يا سيدي الأمير ؟

فقال قيس : كأنه قال ذلك ؛ ولكنه لم يكن خطيبها ، ولم تشر هي إلى ذلك .. وهي ابنة ملك .

فقال الوزير : من هي هذه الساحرة التي تتكلمان عنها ؟!

قال قيس متابعا ومبررا : كما علمنا من الشاب رفيقها أو حارسها أنها الأميرة سلمى ابنة الملك جعد بن همام..

هتف الوزير فرحا : الله .. الله !! .. هذا الملك من أبناء عمومة أبيك .. وجدكم واحد حسنا أيها البطل ! سنرسل إليهم وفدا ، ونرى ما يكون .

ومع الفجر تابع الفرسان رحلة صيدهم ، وقفل الوزير مسرورا إلى الملك خصيب وقص عليه الخبر ، فطار الملك فرحا ، وعاد إلى قلبه السرور والابتسام ، وأعلن الأفراح في البلاد لموافقة الأمير على الزواج .

لقد غمرت الأفراح قصور الملك والأمراء على استسلام الأمير الوارث وقبوله بالزواج ، ولكن شاب فرحهم قلقا بأن ترفض الأميرة سُلمى ابنة الملك جعد بن همام الاقتران بولي عهدهم وملكهم في المستقبل ، وقد تسّار الملك مع وزيره في هذا القلق ، وبعد تأمل ونظر استعد الوزير غراب بنفسه للذهاب إلى بلاد الأكباش أوأبو كبشة حيث يحكم الملك جعد ..ولما تجهزت الهدايا المناسبة ، وجهز الوفد المرافق ، سار بهم الوزير غراب ليلا ونهارا إلى تلك البلاد ، وبعد حين اقترب منها ، فأرسل بعض غلمانه رسلا للملك جعد الذي تلقى خبر الزيارة بدهشة واستغراب وأرسل وزيره النبهان لاستقبال الوزير غراب وزير ابن عمه خصيب ، ولما التقى الوزيران تعانقا عناق الأصحاب ، وتصافح الرجال مع الرجال ، ومشى الوزير النبهان أمامهم إلى قصر الضيافة ولما اطمأن عليهم ، ورتب أمر طعامهم وشرابهم قال : الملك في انتظاركم يا ابن العم ! فأثنوا عليه الثناء الحسن ، وشكروه على حسن وفادته واستقباله ، وعند المساء سار الوزير غراب والوفد المصاحب له إلى قصر الملك جعد الذي رحب بهم ، ورحب بزيارتهم ، وقبل هدايا ابن عمه خصيب ، وسأل عنه وعن صحته وأخباره ، ثم أفصح له الوزير غراب عن القصد والغاية والدافع لهذه الزيارة ، وقال الملك بعدما سمع الكلام ووعاه : مرحبا بكم ، ومرحبا برسول ابن عمي .. وبعد أيام ثلاثة ستسمعون الجواب .. وحياكم الله وبياكم في ديارنا ولما انصرف الضيوف تحدث الملك جعد مع كبار الأمراء وقادة الفرسان وأهل مشورته بأمر هذا الزواج ، وسمع منهم الكلام ، وكان أكثرهم يرفضون تزويج الأميرة في بلاد بعيدة وأن قومها وأهلها أولى بها ، وكان أشد الرافضين خالها نحاس ، فهو كان يطمع بأن ينكحها من ولده الفارس ماجد حارسها الأمين وحارس قصرها ، ثم صرفهم الملك بعد السماع ، وأبقى وزيره النبهان الذي أثنى بدوره على الملك خصيب ، وأنه من الفرسان الشجعان والملوك الكرام ولا يتردد في مساعدة المظلومين ، وأن ابنه هو ملك المستقبل ، وفي المصاهرة للكرام تتقوى الصلات والعلاقات ، وختم كلامه أن الرأي النهائي للملك والأميرة نفسها .

وتشاور الملك بعد ذلك مع زوجته أم الأميرة سُلمى ، فأنكرت هذا الزواج ، وذكّرت الملك أن

الأميرة هواها مع الأمير ماجد ابن أخيها ، وهم ينتظرون اللحظة المناسبة لفتح هذا الموضوع وهذا الزواج ، وأمام أمها أظهرت الأميرة رفضها للعريس الأمير قيس ، وأمام أبيها عندما انفرد بها تركت الأمر له ، وأنها لا تريد إثارة القلاقل بهذا الزواج ، وكان الملك جعد نفسه يكره زواج ابنته من ابن خالها ؛ ولكنه لا يريد إثارة الصراع داخل المدينة فأخوال الأميرة وعشيرتهم كثر ، وفرسان لا يستهان بهم حين النزال والمعارك العظام ، فالتقى بخال الأميرة ووزيره ، وبعد حديث قال الملك جعد : الرفض أيها السادة سهل ؛ ولكنه سيوغر صدر ابن عمنا علينا والأيام دول ، ومجاملة الملوك لابد منها ، والاعتذار لهم ليس كالاعتذار للسوقة ..وبعد تفكير وصلت لأمر سأعرضه عليكم .. فإن لبى ابن عمنا طلبنا نزوجه ابنتنا ، وإن اعتذر نكون قد تخلصنا منه بأدب وذكاء وفطنة ، وبقي حبل الود متصل بيننا .

ولما حضر الوزير غراب إلى ديوان الملك جعد ليسمع الجواب قال الملك : أيها الوزير الحكيم وزير ابن عمي خصيب ..اعلم أنني شاورت الأهل والقوم ، فمنهم الرافض لهذه المصاهرة ، ومنهم المبارك ، وحتى لا يغضب علينا ابن عمنا .. فنحن نطلب منه ثلاثة مطالب ؛ فإن وافق عليها حصل الزواج .. فما تقول ؟!

فقال الوزير بقلق : اشرط أيها الملك ..فأرجو أن يوافق سيدي الملك على شروطكم ..فما الشرط الأول ؟



فقال الملك : فنرى أن يهبنا الملك خصيب جواده العظيم دموع

فقال الوزير : أرجو أن يوافق مولانا الملك فالفرس دموع عزيزة على الملك خصيب .زهات الشرط الثاني ؟

فقال الملك : لقد سمعنا عن سيف الملك فردوس .. سيف ملك الصين لابن عمنا خصيب .

فقال الوزير غراب : وهذه أصعب من الأولى إنها هدية ملك !

فقال الملك : وأما الثالث ..فأول مولود يولد للأميرة سواء كان أنثى أم ذكرا أن يربى ويحيا في

بلادنا.. فاذهب بهن إلى مولاك الملك ، ونرجو أن لا تطول إجابتكم ؛ فإن ابن خالها الأمير ماجد بن نحاس طامع بنكاحها أيها الوزير الشجاع .

قفل الوزير غراب عائدا إلى البلاد ، وهو يحمل مطالب الملك جعد لقبول الأمير قيس زوجا لابنته سُلمى ، وبعد مسير طويل استغرق سبع ليال دخل الوزير والوفد على الملك خصيب في ديوانه العامر بالرجال والفرسان ، ولما تعانق الرجال كانت الاحداق تنتظر جواب وكلام الوزير ، فهمس قائلا :

هل أتكلم يا ملك الزمان بحضرة الناس ؟

فتلفت الملك حوله وهمس : هل رفض الملك جعد غايتنا ؟!

فقال الوزير : لم يرفض ولم يقبل وإنما اشترط شروطا .

فصاح الملك الشيخ : ارفع صوتك أيها الوزير أمام السادة الأكابر وأخبرنا بشروط ابن عمنا !

فسعل الوزير غراب عدة سعلات وقال : أيها الملك العظيم ! .. فالملك جعد ملك بلاد الأكباش بعدما شاور رجال قومه ووزيره وأهله ، بان له أن بعض القوم يرفض وخاصة خالها نحاس ، فهو طامع بأن ينكحها لولده ماجد ، وبعضهم راغب بمصاهرتنا يا ملك الزمان ، فأراد الملك جعد أن يخرج من هذا الحرج بحيلة لطيفة ، فاشترط ثلاثة شروط .. فأولها رغبته بملك فرسكم العظيمة والشهيرة دموع .

فبهت الجميع لهذا المطلب ، فهذه الفرس سليلة خيل ذات نسب عريق ، وهي عزيزة على الملك ولها معه تاريخ قديم ..ولما لم يتكلم الملك بشيء ، تابع الوزير غراب قائلا : وأما المطلب الثاني يا مولاي الملك ..رغبة الملك جعد بن همام بتملك سيفكم سيف الملك فردوس .. سيف ملك بلاد الصين المشهور والمعروف عند الملوك والفرسان .

فقال بعضهم : هذا الطلب أشد من الأول .. وما المطلب الثالث أيها الوزير ؟!

فقال الوزير : هو أعجب وأغرب من الأوليين ..فهو يطلب الحفيد الأول من ابنته ؛ ليكون ضمن ملكه ، وأن يعيش ويتربى تحت رعايته .

فخيم الصمت على وجوه القوم برهة من الزمن، ثم قال الملك وقد تنهد تنهدا عميقا: الأخيرة تخص قيس سأتكلم مع الأمير .

اجتمع الملك بابنه قيس وذكر له شروط ومطالب الملك جعد ، فاستغرب الأمير لهذه المطالب وبعد تفكير عميق وصمت طويل ، قال الأمير : إنني لا أعلم لماذا يطلبون هذه الأشياء ؟!.. أقلة خيل عندهم ؟! أقلة سيوف لديهم ؟!.. ولماذا يريدون ولدنا ؟ ألا يثقون بابنتهم لكي يحرموها من ولدها ؟! هذا إذا أنجبت ؟ !

فقال الملك : لا تقل ذلك .. ستنجب بمشيئة الرحمن ، يا ولدي ! لا تخف ولا تهتم ، فهذا أمر مالك الكائنات .. فإذا لم يخلف أخوك فهذا لا يعني أنك لا تخلف .. فكم أنجبت أنا من البنات أما هذه المطالب فهي اعتذار مبطن .. فهم ليسوا بحاجة لدموع ولا لسيف فردوس .. وهذان أنا مستعد للتخلي عنهما يا ولدي .. فزواجك مهم عندي ، مهما عزت عليّ هذه الأشياء ، فأنت أعزّ وسعادتك أعزّ وأهم .. أما الشرط الثالث فهو لك ؟

فقال الأمير : ألا نستطيع أن نحتال على عدم الوفاء به ؟

فقال الملك : هذا عار في شرعة الملوك ، وقد يسبب الحرب الضروس بيننا .. فالوفاء من شيم وأخلاق الملوك الكرام يا ولدي !.

فعاد الأمير للصمت من جديد ، ولما استحثه والده على الكلام قال : الأمر لك يا أبي ! إذا كنت ترضى بالتخلي عن حفيدك الأول فأنا راض وموافق .

فعانق الملك ولده وقال : ألست أنت الذي تريد أن تنكح بنات الملوك ؟!.. فلعلنا بعد مجيء المولود نتدبر الأمر معهم ونسترجعه ثانية ..فسأرسل الوزير غراب مرة أخرى بمطالبهم وهيئ نفسك للزواج ، ولا تخرج للصيد حتى يتم هذه الأمر .

أخبر الملك خصيب وزيره والأمراء والقادة موافقته على شروط الملك جعد ، وأعد للوزير سفارة جديدة ، وكان الوزير قد أرسل بدوره عبدا من عبيده يبشر الملك جعد بموافقة الملك خصيب على مطالبه الثلاثة ، ويحثه على تجهيز العروس ، وبعد مسير طويل دخل الوزير غراب

على الملك جعد بالهدايا الكثيرة من ثياب وجواهر وخيل ، ومن ضمنها سيف الفردوس والفرس دموع ؛ ولكن الوزير لم يجد البشر والسرور على وجه الملك والأمراء ؛ بل وجدوا الكآبة والحزن والأسف .

فقال الملك بأسف وحزن : كان يجب أن يغمرنا الفرح والسعادة بحصولنا على هذه الأشياء النادرة ؛ ولكن بـعدما وصلنا خادمكم وأخبرنا بموافقة ورضا الملك خصيب ، وأنك قادم خلفه اختفت الأميرة سُلمى والأمير ماجد ، لـقد هربا ، ولم نجدهما أيها الوزير ، ويقول حارس الباب إنه فتح لهما باب المدينة الغربي ليلا ، وقد ادعيا أنهما ذاهبان في حاجة لنا ، ولليوم ونحن نبحث عنهما يا وزير الخير .

فضرب الوزير كفا على كف ، وقال بحدة : لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .. إنها مصيبة عليكم وعلينا !!

فتدخل نحاس خال الأميرة المختفية ووالد الأمير المختفي ، وقال متغاضبا : أنتم السبب أيها الوزير ! ما الذي أتى بكم لبلادنا طالبين بناتنا ؟!

فقال الوزير بحدة أيضا : اسكت يا هذا ! .. فهذه عادة الملوك والسلاطين.. يخطبون لإبنائهم بنات الملوك والأشراف .. أخشى أن تكون أنت الذي ساعدهما على الهرب .. أتدري أن هذه الفعلة قد تثير الحرب بين البلاد ؟ وتجلب الخراب للبلاد والعباد .

فصاح نحاس : ويلك !!.. أتهددننا في عقر دارنا يا غراب ؟

فقال الوزير بغضب : ويحك إنك مثير حرب !.. والله لو لم يرغب الملك بتزويجنا ابنته سُلمى لاعتذر ولم يشرط علينا .

وارتفع الصياح في ديوان الملك جعد الذي لزم الصمت خلال هذا الجدال الحاد ، واهتزت السيوف في أغمادها ، فصاح الوزير : يا ملك البلاد !.. قل لي ماذا أقول للملك خصيب ابن عمك ؟.. هل أترك جواده دموع وسيفه الفردوس أم آخذهما ؟ ..فإني أخشى إن عدت بهما غضب الملك أرشدني أيها الملك ؟

فصاح بعض أصدقاء نحاس : لسنا بحاجة لهداياكم وأموالكم .

فقال غراب : ما هكذا يرد على هدايا الملوك والكبار .. فنحن جئنا حسب طلبكم .

فصاح جعد الملك وهو يشير لهم بالصمت : إنني لن أغفر لولدك يا نحاس فعلته السوداء .. أهكذا يفعل ببنات الملوك ؟! يهرب بهن .. إنني قاتل ولدك وابنتي معه .. هذا عار كبير ابنة الملك جعد بن همام تهرب مع فارس صعلوك ..ويحكم وتريدون مني أن أثير حربا مع ابن عمي بعد عملكم الأسود الشنيع .. لا يا سادة ! أنا أطلب منكم إحضار ابنتي وماجد حيين أو ميتين .. فهذه إهانة كبيرة لا يمحوها من تاريخ أسرتنا إلا الدم والموت .

فانحنى نحاس يقبل قدمي الملك الغاضب ، ويطلب حياة ولده الجاهل ، فلم يصغ الملك لهذا الرجاء ، فانتقل إلى الوزير غراب وترجاه وتوسل إليه بالشفاعة لولده عند الملك ، فقال الوزير : ليتكم تدبرتم الأمر قبل ذلك ..لماذا فكرتم هذا التفكير الساذج ؟! كان عليك أن تدبر الأمر مع الملك قبل طلبه مطالبه.. قبل أن يشرط علينا.. لا أن تحث ولدك على خطف الأميرة ؛ وأنا أرى يا نحاس أن تحاول الوصول لولدك وتقنعه بإعادة الأميرة ، وسينصلح الحال ، وغضب مولانا الملك سيزول .. وأنا تارك هدايا مولانا الملك خصيب وعائد لبلادي ؛ لأنظر قول الملك خصيب ، وأدعو الله أن لا يغضب لهذه الإهانة الكبيرة ، وتثور الحرب بيننا من أجل ذلك السبب .

غادر الوزير بلاد الملك جعد والنار والغيظ يملأن صدره وقلبه ، ودخل على الملك خصيب مهموما مغموما ، ولما علم الملك بجلية الأمر انفجر بركان الغضب في جوفه وصدره وصاح وصرخ ، وغضب الأمراء والأمير قيس وأقسم الأخير بالرب المعبود أن يبحث عن الأمير ماجد والأميرة سُلمى وينتقم منهما ، فسعى الوزير لمنعه عن هذا التصميم ، وطلب منه الصبر والتروي حتى يروا ماذا سيفعل الملك جعد ونسيبه نحاس ؟ وأخذ الملك خصيب يتهدد بالحرب والويل لبلاد الملك جعد.

وبينما القوم مهمومون منشغلون بالخطوة القادمة لهذه الإهانة التي لحقت بهم أقبل الوزير

النبهان ، ومعه وفد من كبار رجال البلاد يـقدمون الاعتذار الشديد للملك خصيب ، وأتوا معهم بالفرس دموع وسيف الفردوس ، وبعد كلام وعتاب واعتذار ، تقدم الوزير النبهان وقال أمام الفرسان والأمراء : نحن نعتذر أشد الاعتذار عما بدر من هرب الأميرة والأمير ماجد بن نحاس .. وها هو الأمير ماجد بنفسه بين أيديكم .

ودفع الوفد شابا ضعيفا مريضا أمام الملك ، فتعجب الملك والحاشية من مرآه ، وتابع الوزير النبهان الكلام : يا سادة .. لقد دفع الهوى وسوء التقدير هذا الفارس المثخن بالجراح عندما سمع بتنازل الملك خصيب عن جواده وسيفه لئن يهرب بفتاته الأميرة !.. ولما وصل وادي السرحان قرب جبل ضربان اعترضته عصابة من رجال الليل وقطاع الطرق ، فأثخنوه بالجراح وخطفوا منه الأميرة سُلمى بنت جعد .. وساقه بعض الرعاة وعابري السبيل إلى مأمن ، وعالجوه ، ولما تحسن حاله أحضروه لبلادنا .

وأمره الوزير أن يكشف عن صدره وظهره ، فشاهد الرجال أثر الجراح الكثيرة ، وعجبوا لحياته بعد كل تلك الطعنات ، ولما شاهد القوم حال الأمير ماجد ، عاد الوزير النبهان للكلام فقال : أيها السادة ! البلاد كلها مشغولة اليوم بالبحث عن الأميرة الهاربة والمفقودة ؛ وجئنا إليكم لتتأكدوا من حسن نوايانا نحوكم .. ونأسف لعدم حصول هذا الزواج الكبير في تاريخ مدينتنا فكلنا رجاء بأن تقبلوا اعتذارنا ..

وبعد كلام كثير دار في مجلس الملك ، قبل الملك خصيب الاعتذار ، وعفا عن الأمير ماجد ، وأمر بإكرام الضيوف ، وبعد ثلاثة أيام عادوا لديارهم لينعموا بالسلام من جهة الملك خصيب بن مرار .



كان الأمير قيس يجلس مع صديقه صقر بن غراب ، ومعهما غلامه عبس الفارس الأسمر يتسامرون تحت ظل الأشجار في قصر قيس وفجأة قال الأمير قيس : إنني أفكر أيها الصديق الفارس! بالبحث عن الأميرة المخطوفة ؛ لتـعرف من هو قيس الذي هربت منه مع فارس جبان ، تركها ضحية بين أيدي الأوباش واللصوص ؟

فقال صقر : دعك من ذلك الشأن .. فلابد أن هؤلاء اللصوص قد أنكحوها لزعيمهم ، وأسكنوها في إحدى المغر، ولم تـعد تلك العذراء التي تحلم بها .. فليبحث عنها قومها بل فارسها المسمى ماجدا وما هو بـماجد .

فقال قيس : إنها جرحت كبريائي أيها الصديق .

فقال صقر : وماذا ستفعل بها إذا التقيت بها بعد أن صارت عشيقة للصوص والشطار .. لعلك تعشق أيها الفارس ؟!

فقال عبس الأسمر : أليست هي المرأة الأولى التي خفق لها فؤاده يا صقر الفوارس ؟! أليست هي التي جعلته يقبل الزواج بعد رفض عنيد ؟ أليست هي التي جعلته يغامر هذه المغامرة ؟! ويتنازل والده الملك عن أعز خيوله وعن أجمل سيوفه.. ؟؟

فتهد الأمير قيس وقال : أجل أيها الصديقان .. هي الفتاة التي سحرتني بعيونها ، واهتز قلبي لسهام عينيها يوم وادي الثعالب إنها فاتنة ساحرة ! ولا أدري كيف تعلقت بذلك الـماجد ؟!

فقالعبس: مع أني أشك بحبها له ..لم تكن حركاتها في ذاك اليوم توحي بذلك الحب بينهماولكن القرب قد يكون السبب.. وقد يكون هو أفرس فرسان بلادها

فصاح صقر : مصيبة أن يكون آخر كلامك صحيحا ! إنه كثير الكلام والفخر .. لقد رأيناهم أثناء الصيد .. غلمانه هم الذين يصيدون ويطاردون .. كما قال أحدهم هو ليس له إلا الكلام الجميل اللامع البراق .

فعاد عبس يقول : أعود فأقول ربما تحبه وتهواه ومن أجل ذلك هربت معه .

فقال قيس : وهذا ما يحيرني ؟! إنني لاحظت أثناء لقائنا ذاك أنها تعبث به ، وإلا لما سمحت

لنـفسها بالجلوس معنا والحديث معنا .. بل كانت تسترق النظر اليّ أكثر من مرة .

فقال عبس ضاحكا : إي والله ! إني لاحظت ذلك .. وهذا ما دفع ماجد للحديث عن الحب الذي بينهما حتى لا نتورط ويقع أميرنا في هواها .

فاعتدل الأمير في جلسته وقال بجد وحماس : هل تظنون أن ماجداً غرر بها وسلمها للصوص أوه ؟!.

ونهض واقفا وقال : أيها القوم أشعر أن في الأمر مكيدة ! .. لابد من الوصول إليها فإلى وادي السرحان أيها الرفاق .



قيس في وادي السرحان

خلع الأمير قيس ثياب الأمراء ، وتنكر بثياب العوام والرعاع ، وطلب من صديقه صقر إخفاء خبر تنكره ، وأرسل وراء غلامه جُبار وكلفه بالوصول إلى وادي السرحان والالتقاء باللصوص وشطار الجبل ، ورحل قيس وفارسه الأسمر عبس متخفين إلى بلاد الأميرة سُلمى وكان قد كتب رسالة خاصة لوالده يخبره بذهابه للبحث عن الأميرة ويحثه فيها على الصبر وعدم الخوف والقلق ، ودفعها لـ صقر وسافر متنكرا إلى مدينة الأكباش ، وبعد أيام دخلوها بسلام ، وفي فندق صغير سكنا ، وهدفهما الوصول إلى رجال الأمير ماجد بن نحاس ، فقد وجدا البلاد منقسمة على بعضها البعض منذ ضياع الأميرة ، فالملك جعد بن همام يجمع رجاله وعشيرته وقومه وأنصاره من العشائر الأخرى ، ويتهم الأمير نحاسا وأصهاره بالغدر والخيانة وخطف الأميرة الشريفة ، ونحاس يتحدى ويحتمي بعشيرته وأعوانهم ، ويكاد الصراع والقتال أن ينشب بين الفريقين ، والوزير النبهانوعشيرته يحاولون منع اندلاع الحرب ، ويحثون الجميع على البحث عن الأميرة في كل أقطار الدنيا وبين رجال العصابات ، وعلموا أن فرسانا من قوم نحاس يطالبون بخلع الملك جعد وطرده من البلاد ، فهم أهل البلاد الأصليين ، وما جعد إلا دخيل عليهم ، وقد تغلب آباؤه وأجداده قديما على مدينتهم أبو كبشة ؛ ولكنهم يخشون مناصرة الملك خصيب بن مرار لابن عمه ، فهم يتمهلون ويتروون في قضية عزله وطرده ، وكانوا يرون بزواج الأمير ماجد من الأميرة سُلمى أفضل السبل للوصول للعرش وتاج المملكة ؛ ولكن طلب الأمير قيس للأميرة وموافقة الملك قلب تدبيرهم وأحلامهم ، واختفاء الأميرة وضياعها ضاعف القضية ، فكان المندفعون من قوم نحاس يطالبون باستخدام القوة والعنف وإزالة حكم الملك جعد وعشيرته وعدم الانتظار أكثر من ذلك ، ولكن بعض الكبار يعارضون ذلك ويحثون على النظر والتأمل وعدم الاندفاع وراء حماس الشباب ، ويشجعون الوصول للحكم بالطرق السلمية والهادئة ، والوزير النبهان يحاول تهدئة الأمور وإعادة الوئام للقبيلتين قبل استفحال الأمر بينهما وقبل سقوط الدماء الحمراء بينهما ، فهو يتردد بين رجال القبيلتين

للإصلاح والوئام ، هكذا كان الوضع السائد عندما نزل قيس وعبس المتنكرين باسم الربيع ومسعود الراعي مدينة الأكباش ، وبعد حين تعرف الرجلان على أهم أصدقاء الأمير ماجد ؛ فإذا هو ابن عم له شاب فارس كثير الحماس للفتن والمعارك ، فهو يجمع حوله شبابا وعبيدا من قبيلته وينفث في روعهم حب القتال وإعادة الملك لقبيلتهم الكبيرة والأكثر عددا من قبيلة الملك جعد ، وكذلك كان يحرض ماجدا على التمرد وإراقة الدماء وعدم سماع المعترضين على الحرب ، فانضم الرجلان إليه بحجة الحماس والانسجام مع مطالبه ، وطمعا بالمناصب والجاه ، ولم يطل بهم المقام حتى أصبحوا من رجال ماجد والمحيطين به في ترحاله وقيامه واجتماعاته ، بل أصبح مسعود الراعي عبس من حرسه المقرب ، فكان عين قيس عليه

لقد تمكن الأمير قيس (الربيع) والغلام الفارس عبس من الانضواء ضمن رجال وأنصار الأمير ماجد بمساعدة ابن عمه غمر الرحال ؛ ولأن الأمور متوترة لم يدقق في شخصياتهما وما هم الا من الرقيق ، وقد كادت الأمور تشتعل بين أفراد قبيلة الملك جعد وأفراد قبيلة الأمير نحاس عشيرة الجرادة ، وقد دارت بينهم معارك صغيرة استطاع الوزير النبهان وبعض العقلاء من احتوائها ؛ ولكن ما زالت الأمور تتفاعل وتغلي الصدور على بعض ، وأثناء ذلك تعرضت أطراف البلاد لغزو اللصوص وقطاع الطرق وهرب سكان الريف والقرى نحو المدينة الكبيرة وانزعج الملك جعد ووزيره النبهان لهذا الحال ، وقد قل الأمان في أطراف البلاد ، وبينما البلاد تشتعل على نار هادئة ، وقد أخذ اللصوص يتحرشون بالبلاد ، دخل المدينة رجل وأسر في أذن الأمير ماجد الذي تعافى من الجراح التي اصطنعها خبرا طار له صوابه ، وجمع له كبار معاونيه ، ووصل هذا السر لأذن مسعود الراعي ، وعلى أثر هذا السر جمع الأمير ماجد مائة فارس من رجال القبيلة ، وأخلص الرجال إليه وغادر المدينة خفية عن أبيه واخوته وأعمامه ، وكان من ضمن الفرسان المائة مسعود والربيع ، وسار بهم أياما وأياما حتى وصلوا وادي السرحان حيث جبل ضراب الكبير ، و يقال له أيضا جبل السرحان ، وهناك أفصح لهم الأمير عن سر هذا المسير العاجل فقال : أيها الأبطال .. لقد وصلني خبر عن ابنة عمتي الأميرة سُلمى ، وقد

قررت تحريرها من أيدي اللصوص ؛ ليعرف السادة من أهل بلادنا قوتنا وشجاعتنا وتصرفت بدون مشورة الكبار للعجلة وعدم التردد وتشتت الأقوال .

فأثنى الفرسان على شجاعة الأمير ونخوته ، وفرحوا بسماع خبر عن حياة الأميرة المفقودة منذ شهور ، ولما توغلوا في وادي السرحان تركهم ماجد واختار مسعودا أكثر الرجال حماسا له ولأفكاره ، وسار به نحو سفح جبل ، وبعد مسير متعب دخل به واد عميق ، وهناك التقى ماجد بعدد من الرجال المختفين بالجبل ، وبعد أن صافحهم وحياهم التـقى بزعيمهم ؛ فإذا هو رجل كث اللحية ضخم البدن .

فخاطبه ماجد بغضب ؛ وكأنه يعرف الرجل حق المعرفة : أبا الليل ! .. لقد أخبرني ناطور خبرا مرعبا .. ماذا فعلتم بالأميرة ؟! أين اتفاقنا ؟!

تنحنح الرجل الضخم عددا من المرات قبل أن يرد قائلا : لقد جرى لنا ما كدر صفونا وتعهدنا لقد زارنا سيد اللصوص وكبير هذا الوادي الملك غضبان أبو الرجال ..وأنت تعرف من هو هذا السيد الكبير !!.. ولقد شاهد ابنة عمتك الأميرة واستحسنها ورغب بها .. فقصصت عليه بعض قصتك فقال إذا شاءها فليأت مدينتي على جبل الرملي في نهاية وادي السرحان الغربي .. والأميرة نفسها وافقت على الاقتران به والسير معه ، فقد كرهتنا وملت صحبتنا ، ونحن كما تعلم لا نستطيع محاربة ملك اللصوص وسيد هذا الوادي .. وإن كان لديك رغبة بابنة عمتك فإليه فامش .

تناول ماجد الطعام معهم ، ثم قال : ما العمل يا أبا الرجال ؟! .. فسيد الوادي صعب المراس ألا تشفع لي عنده ؟

بصق الرجل الضخم ومسح وجهه ولحيته ثم قال : الذي لمسته من بقاء الأميرة خلال هذه المدة الطويلة بيننا أنها كارهة لك ؛ بل حاقدة عليك وناقمة ؛ فأرى أن تدعها لمصيرها الأسود زوجة أو عشيقة لملك اللصوص ، وربما أن تكون هي التي دست له خبرا عن وجودها هنا لتنتقم منك .. فالنساء ماكرات قليل الوفاء عندهن ! فكيف بمن هي لك كارهة ؟!..وأنا أرسلت

لك رجلي فور انصراف الملك عنا حتى لا تظن أنني اتفقت معه عليك .. فنحن استفدنا كثيرا من صداقتك لنا ؛ ولكن كما تعلم لا نستطيع أن نعادي أبا الرجال فهو زعيم وادي السرحان من غير منازع ، وكل المدن غاضبة علينا ، فلا نقدر دخولها علنا كما تعلم ، ولا أظن أنني أفيدك بشيء عند الملك ما دامت الأميرة قد قبلت الاقتران به

فتظاهر الأمير بعدم الخوف ورد قائلا : لـقد أتى معي مائة فارس ، كلهم أطوع لي من بناني .

فقال أبو الليل بنبرة فيها غضب : ألا تفهم أيها الرِّجال ؟! .. أتريد أن نحارب أبا الرجال ؟ إنه أمر صعب ..بل مستحيل .

فقال ماجد محاولا إغراء صديقه رجل الجبل : يا هذا ! إذا تزوجت هذه المرأة قربتني من المُلك وسيكون لكم مكان مناسب فيه ، وهو خير لكم من حياة المفازات والوديان .. والأمير قيس قد صرف نظره عن الزواج من أميرتنا اللعينة ..لقد سحرها بعينيه ورجولته في وادي الثعالب وهي قد سحرته بجمالها وحسنها حتى عجل بطلبها .. إيه على الأيام ..!!

فقهقهه أبو الليل وبعض رجاله على تحسرات ماجد وقال : لقد فازت بالزواج من ملك ! وهو خير لها من أمير ابن ملك ، ومن أمير حارس لها يحلم بأن يكون ملكا .. اسمع أيها الفتى ! إنني لك ناصح ، دع السير إلى مدينة الملك غضبان فلن تلقى خيرا ، وعد لبلدك ، وفكر بحيلة أخرى تصل بها لتاج مدينتك .

بعد أن فشل ماجد بإقناع أبي الليل ورجاله بمساعدته قفل عائدا نحو رجاله وفرسانه فوجدهم في غاية القلق والخوف عليه فقال : لقد قابلت زعيم هذا المكان ؛ لأن الرجل الذي ساقنا إلى هنا أحد رجال هذا الزعيم ، وهو الذي أخبرني عن وجود الأميرة عنده ، وقد أتى ملك اللصوص الغضبان أبو الرجال وأخذها منهم إلى مدينة في نهاية وادي السرحان من جهة الغرب ، وقد نصحني الرجل بالعودة وعدم الخوض بكم غمار هذه المعركة لكثرة اللصوص الذين يملكهم ذاك اللعين ، ولن تكفي شجاعتنا لدحرهم فما تقولون ؟!

أخذت الهمسات والأفكار تتناقل بين الرجال هنا وهناك ، وبعد طول جدل تقرر العودة للبلاد

وعدم المخاطرة من أجل إنقاذ الأميرة ، واتفقوا على عدم الحديث أمام قومهم وأهل مدينتهم عن سبب خروجهم المفاجيء من المدينة ، ولا يتحدثون عن حياة الأميرة بين أيدي المجرمين ، وهذا ما حصل فعلا فيما بعد ، فارتد الأمير عائدا خائبا بفرسانه نحو مدينة الأكباش وهو في غيظ شديد ؛ ولكن أثناء هذه العودة اختفى الربيع ومسعود من بين المائة فقد أطلع عبس الأمير قيس على كل ما سمعه من ماجد وأبي الليل ، فأدرك الأمير كما توقع آنفا أن الأميرة تعرضت لمكيدة ومكر ، وسيقت لوادي السرحان ؛ لأنها وافقت على الزواج من الأمير الفارس قيس بن خصيب ، فلما استوعب الأمير الأمر استشاط غضبا وكرها لماجد ، واتفق هو ومسعود على الاختفاء والسير إلى مدينة ملك اللصوص لإنقاذ الأميرة ، وأثناء الليل هربا وابتعدا عن مكان الأمير ماجد وجيشه ، وهؤلاء لما اكتشفوا غيابهم لم يهتموا ويكترثوا لغيابهم كثيرا ، وظنوا أنهم سقطوا في إحدى الحفر والكهوف ، وكانت خطة قيس السقوط بين رجال سيد الوادي الغضبان ، وظلا يسيران بحذر من واد إلى واد ومن جبل إلى جبل حتى وصلوا إلى جبل الرملي ، وهنالك تم القبض عليهم من قبل رجال الملك أبي الرجال وقادوهم إلى سجن المدينة .

ومدينة اللصوص هذه مدينة صغيرة بعيدة عن العمران والمدن ، وهي على جبل الرملي ، وهو جزء من الجبال الكبيرة جبال ضراب ، وهذه الجبال العالية والممتدة يقطنها اللصوص والمجرمون والهاربون من العدالة والثارات والولاة ، ومع طول الأيام قام الغضبان بتشييد هذه القرية للصوص ولرجاله ، فشيدوا البيوت وتزوجوا النساء ، فكبرت المدينة ، وأصبح الغضبان سيد وادي السرحان الأكبر ، ومن لم ينضو لرجاله وعصابته كان يحذره ويهادنه ، ويقبل شفاعته ويخشاه ، وأثناء زيارة الغضبان لمنطقة أبي الليل شاهد الأميرة سُلمى المحبوسة عندهم ، وسمع بعض قصتها ، فهويها وتعلق بها ، وأرغمهم على تسليمها له ، وساقها نحو مدينته وهو طامع بالزواج منها ، وهي وافقت على ذلك ؛ ولكن بعد تقديمه مهر لها ، وسر الغضبان برضاها ، وانتفخ تيها ؛ فإنها أميرة بنت ملك ، ووعدها متحمسا بأي مهر ولما سمع طلبها دهش

واستغرب ، وقد طلبت منه الفرس دموع والسيف فردوس ، فعشق الرجل الفرس ورغب بالسيف ، وسار بعض رجاله إلى مدينة أبو كبشة ؛ لعلم الأميرة بأن السيف والفرس في بلاد أبيها ، كما أخبر رسول الملك خصيب ووزيره غراب ، ولما علم ماجد بالأمر ـ كما روينا قبل سطور ـ جاء برجاله راغبا بإعادة الأميرة والظهور أمام قومه بمظهر البطل الفارس المنقذ ؛ ولكنه أمام تثبيط أبي الليل جبن وضعف وتخلى عن أميرته وزوجة الغد ، وعاد لبلاده بكل حنينه وجبنه ، وأيضا رجع رجال الملك الغضبان يخبرون الملك بأن السيف المذكور وتلك الفرس رجعا لبلاد الملك خصيب ، ومن شدة هواه للأميرة وحبه لأرضائها والتبيان لها عن هذا الحب والشوق أمرهم بالسير إلى تلك البلاد البعيدة والإتيان بهما من أجل عيون الأميرة سُلمى ابنة الملوك الأكابر .

ودخل قيس وعبس كأسيرين مدينة الرعب ، وبعد مضي أيام في السجن أخرجوهما وألحقوهما بحلقة تدريب ؛ ليكونا من رجال المدينة عندما تبين لهم أنهم لصوص لا أهل لهم ولا وطن .. أثناء التدريب في حلقة السلاح علموا بقصة الأميرة سُلمى ، وكان هدف الأمير وغلامه الوصول للأميرة بأي طريقة والحديث معها ومعرفة مكنونات قلبها ، ومن ثم السعي لتحريرها من أيديهم وقبضتهم .. وقد بارك الأمير في قلبه للأميرة شجاعتها وقدرة تحملها للحياة في هذه الجبال والوديان بعد أن كانت تحيا في القصور وبين الحرس والخدم ، وقد صدق ظنه بأنها تعرضت لمكيدة كبيرة ، وهو كله شوق لسماع حكايتها مفصلة ، وكان يسأل مسعودا فقال : هل يا ترى يتمكن هؤلاء اللصوص من سرقة سيف الفردوس والفرس دموع ؟!

فيقول مسعود : الحيلة والمكر والكيد قد تسهل المهمة .

وبعد حين من الزمان عاد بعض الرجال الذين بعثهم الغضبان لبلاد الرايات ، وأخبر الملك بفشلهم الذريع ، فقد أسر بعضهم ، وقتل بعضهم ، وهرب الباقون ، وذكروا صعوبة الوصول للسيف والفرس ، فاستشاط الغضبان غضبا وغرورا وكبرا ، وأقسم أمام رجاله بأن لا يتزوج الأميرة سُلمى حتى يملك السيف والفرس دموع ، وفرحت سلُمى لهذا القسم ، وقالت

لنفسها : لابد أن رسالتها وصلت لـ قيس ، وفرح قيس أيضا بفشل رجال الغضبان ، وزاد طمعه بتحرير وإنقاذ الأميرة .. وأرسل الغضبان الغاضب خمسين رجلا وعلى رأسهم قائد شجاع من أفضل رجاله لجلب السيف والفرس .

ولم يطل الانتظار فقد جاءت الأخبار بمقتل الكثير منهم ، وعلى رأسهم قائده المفضل ، وظهر لهم بأن الوصول للسيف ودموع من المستحيلات ، وقد ازداد هوى وعشق الغضبان لتملكهما أكثر من تملكه للأميرة .. فجمع كبار رجاله للتشاور ، فشار عليه بعضهم لمعرفته لصلابته وعناده إذا صمم على امتلاك شيء أن يتحالف مع كل اللصوص في وادي السرحان ويغزو بهم بلاد الرايات ، فسر الغضبان من هذه المشورة ، وبدأ يفكر بها ويحلم بتحقيقها لتأديب الملك خصيب بن مرار ، بل فكر بقتل الملك خصيب غيلة ، وأثناء انشغال الناس بمقتله أن يغزوهم ويسرق الفرس والسيف ، وأخذت هذه الأفكار تراوده ويخطط لتحقيقها .

لقد اشتد الغضب بملك اللصوص الغضبان ، وصار هدفه الأعلى تدمير الملك خصيب ابن مرار والقضاء عليه وامتلاك فرسه دموع وسيفه الفردوس ، وبينما هو يفكر ويحلم بتحقيق ذلك أتاه أحد رجاله الناجين من قبضة فرسان الرايات يخبره أن الملك خصيب يعد جيشا لغزو وتدمير مملكة اللصوص ، فازداد قلق الملك الغضبان من هذا الخطر الداهم ،أو بدأ يشعر بأن هؤلاء القوم أقوياء ، فبث جواسيسه ورجاله في وادي السرحان ، وبدأ يتصل برؤساء العصابات ويعرض عليهم التحالف للدفاع عن جبالهم أمام الخطر القادم ، وأجّل محاولة قتل الملك خصيب .



كان قيس وعبس محجوزين في حلقة السلاح ، يتدربان ويعدهما رئيس الحلقة للانضواء تحت

ظل العصابة أو ملك اللصوص ، ولم تصل إليهم أنباء هزائم رجال الغضبان ولم يتمكنوا من الوصول لقصر الغضبان ، فما زالت الثقة بهم ضعيفة ، ولكن أمام التطورات الأخيرة أخبرهم رئيس الحلقة بقرب إلحاقهم بفرق العصابة ، وأحس الفارسان بأن خطرا يهدد الجبل ، ولكن رئيس الحلق كتم عنهم الحقيقة ، فظنوا أن الأمير ماجد قادم لإنقاذ فتاته سُلمى ، وخلال أسابيع ألحق الرجلان بمجموعة يرئسها الزعيم الملقب بـ غضبة الليل من كبار معاوني الغضبان ، فساقوهما نحو مقر زعامته فرأياه رجلا ضخما جدا كثير الجروح والإصابات في وجهه ، شعره ضخم ومنفوش ، فتعجب قيس من خلقته ، ولما سمع ثناء رئيس الحلقة عليهم قال بصوت ضخم جهوري : هل أخبرتهما جزاء من يحاول الهرب أو خيانة الأسياد؟

فهز رئيس الحلقة رأسه مرات ومرات وهو يؤكد له صدق انتمائهما لعصابات الجبل قائلا : لهما عدة شهور بيننا .. ويكفي أننا حافظنا على حياتهم .. وهما لصان هاربان يا سيدي .. وهما هاربان إلينا أمسك بهما رجالنا وذلك أثناء دخولهما الجبل.. فهم في أول الطريق .. ، وألقينا عليهم تعاليم وآداب الجبل ، وما عليك إلا أن تمتحنهما ؛ ولكني واثق منهما .. فطول مدة إعدادهما كانا مستسلمين وطائعين ، أرجو أن يكونا عند حسن ظن الجميع يا سيدي الزعيم .

فصاح غضبة الليل : حسنا أيها الرئيس ! سيكون فحصهما قريبا ، فهناك خطر داهم على الجبل كله .

وبعد أن تكلم معهما الزعيم مرغبا ومنذرا أشار لأحد رجاله بأن يرشدهما لمنامهما ، وأن يلقي عليهما آداب التعامل مع غضبة الليل ، كان قيس يخوض هذه المغامرة بقلب أقوى من الحجر ، فهو واثق من قلبه وسيفه ، ولم تمض أيام أخرى حتى علم مصدر الخطر القادم الذي يتهدد جبل ضراب فهمس لـعبس : هل يا ترى يزحف جيشنا لقتال هؤلاء اللصوص والقتلة ؟!

فقال عبس : أرى أن الغضب اشتد بحضرة الملك خصيب من محاولتهم الاستيلاء على فرسه وسيفه ، وأنت تعرف مقدار تعلقه بهما ، ولابد أنه اعتبر محاولتهم الفاشلة إهانة له ، فأمر بتجريد الجيش لتأديبهم وزجرهم .. واعلم أيها الفارس أن طلب الأميرة للسيف والـفرس دموع رسالة

خاصة إليك أنت أيها الأمير !

فقال قيس متذكرا : نظرات وادي الثعالب لم تغب عن بالي ، لقد أصابنا الحب والهوى ، ولكن ذاك اللعين حجب الرؤيا عنا .. كيف سنصل للأميرة قبل وصول الجيش ؟!

فقال عبس : القضية أننا لا نثق بأحد من الرجال ، وكلهم ينظر إلينا بريبة رغم هذه المدة التي قضيناها بين ظهرانيهم ، قاتلهم الله ما أمكرهم ! ولكن لن تعجز عقولنا من الوصول إليها ، وسأحاول ذلك بأقرب فرصة سانحة.

قال الأمير بقلق : تحرك بسرعة .. أخشى أن يحاول هذا اللص الزواج منها قبل لقاء جيش بلدنا

فقال عبس : صبرك عليّ ، أيها الأمير سأصل إليها بمشيئة الرب .

كثر تردد كبار رجال الجبل على ملك اللصوص ، والكل يعاضده على الدفاع عن الجبل ووادي السرحان وبذل الغالي والرخيص من أجل المحافظة على جبلهم وواديهم ، وتفتق ذهن الغضبان بعدما بايعه رجال العصابات من جديد أن يبادر بالهجوم ، ورغب بإرسال جماعة تصرع الملك خصيب لتثبيط عزيمة جيشه الزاحف ، وقد أمل أن ينشب صراع داخل البلاد فيستغله لسلب الفرس والسيف ، ووقع اختياره لتنفيذ هذه المهمة الصعبة والقوية على مساعده غضبة الليل ، فاجتمع به سرا ، وأطلعه على خطته المفاجئة والجريئة التي تتلخص بالسير برجاله إلى بلاد الرايات ، وهناك يقوم ثلاثة أو أربعة رجال بالغدر بالملك بأي طريقة أو حيلة .

فتفكر غضبة الليل بما كلف به ، ورد قائلا : مَن مِن الرجال يضحي بنفسه من أجلنا ؟!

فصاح الغضبان غضبا : ويحك !! يجتهدوا أن ينجحوا .. أريد ذلك هل تسمع ؟

فقال غضبة : إني أسمع لو اضطررت تنفيذ ذلك بنفسي .. وبعد أن يقتلوا ذلك الملك اللعين ؟

قال الغضبان : حينئذ سيضطرب وضع المدينة ، وستنشرون الخبر في جيش الملك القادم نحونا فيفت ذلك من عزمهم لغزو مملكتنا، وأنت وباقي القوم عليكم بالوصول للسيف والجواد ، فقد علمت أن الحراسة شددت عليهما .. لقد هزمني هذا الملك ، وأنت تعرف أنني لا أسمح لأحد بأن يقهرني وينتصر عليّ ، أكاد أجن يا غضبة الليل يا فارس الجبل ! ألستم رجال الشدة

كم من البلاد داهمنا وسلبنا ونهبنا ؟!

تنهد غضبة الليل وقال : يا ملك الجبل .. بلادهم بعيدة يا ملك الزمان .. مسيرة عشرة أيام حتى نصل إليها .

فقال الغضبان بقوة وصياح : غدا تحركوا ، سأرسل معكم غلامي ضرغام .. فاحذر أن يأتيني بضعف رجالك وتقاعسهم .

فأقسم غضبة الليل بالولاء والوفاء وتحقيق رغبة الملك ، ولما غادرهم الملك جمع غضبة رجاله وفيهم قيس الربيع وعبس مسعود ، وأخبرهم أن الملك كلفهم بمهمة شاقة دون أن يفصح لهم عنها ، وقال بسخط واضح للعيان : مع بواكير الفجر سنكون على جيادنا ونسير نحو الشرق أيها الفرسان .

ارتبك قيس وعبس لهذه المهمة ، ولكنهما تظاهرا بالحماس لها، وأعلنا شوقهما لها ، وأنهما يريدان أن يثبتا لسيدهما الجديد أنهما عند حسن ظنه وثقته بهما .

ولكنهم قبل أن يصلوا لبلاد الرايات التقوا بالجيش الزاحف نحو وادي السرحان ، ولمحتهم طلائع الجيش فطاردوهم ، فسقط بعضهم وهرب بعضهم ، وهم أكثر من خمسين رجلا ، فلم يكن اختفاؤهم سهلا ، وممن نجا الزعيم غضبة الليل ، ولم يتمكن فرسان المدينة من الاستمرار في مطاردته ، فساقوا من وقع في أيديهم نحو خيمة رئيس الحملة الذي كان الأمير صقر بن غراب ، فأخبر الأمير صقر بوقوع عدد من فرسان ولصوص وادي السرحان بين يدي سرايا الطلائع ، فأمر بحبسهم ، وأمر الأمير مالك بسماع أقوالهم ، ولماذا كانوا بهذا العدد الكبير ؟ وهل هم مقدمة لجيش اللصوص ؟ وإلى أي البلاد سائرون ؟ وبينما الأمير صقر يجلس في خيمته الكبيرة ومعه قادة الحملة يصطلون حول النار في جوف الليل البهيم قدم الأمير مالك عليهم ـ وهو الذي كلف بالتحقيق مع أسرى العصابة ـ هامسا بأذنه كلاما نهض الأمير على أثره جالسا على الفور بعد أن كان متكئا وهو يصيح : ويحك أمعقول هذا ؟!

فقال مالك هامسا من جديد : إي والله إنه الأمير قيس ؛ ولكنه أشار لي بأن أتظاهر أنني لا

أعرفه ، ومعه غلامه عبس .

فرك الأمير أذنيه وقال : ما العمل ؟ إنه لا يريد كشف سره .. حسنا .. ورفع صوته قائلا : وماذا يريد هؤلاء الرجال ؟ ومن يقصدون ؟!

فقال الأمير مالك بصوت مسموع للجالسين : إنهم من رجال الوادي ، وهم مكلفون بمهمة، لم يـفصح لهم عنها زعيمهم غضبة الليل .. وغضبة الليل لم يمسكه رجالنا فقد نجا وهرب .

فقال الأمير صقر ملتفتا لقاضي العسكر : ماذا يرى قاضي العسكر والجيش ؟؟

فتطلع قاضي الجيش الأمير هلال نحو أمير الجيش وقال : يساقون إلى بلاد الرايات ويحبسون مع باقي الأسرى السابقين حتى تنتهي هذه الحملة فننظر في شأنهم أيها الأمير .

فعلق صقر قائلا : نعم الرأي أيها القاضي !

وهمس في أذن مالك قائلا : هذه فرصة لتحضر قيسا وعبسا من غير أن يكشف أمرهما

وعاد مالك للأسرى ، وأخبرهم بفتوى القاضي هلال ، فسر قيس لفطنة صديقه صقر وقام مالك بترحليهم مجموعات مجموعات .. مجموعة ثلاثة ومجموعة خمسة ومجموعة أربعة ، وجعل قيسا وعبسا مجموعة ، وتم الترحيل خلال الليل وعلى فترات ، ومع الفجر كان الأمير قيس بين رجال الخيمة الأميرية يـقص على القوم قصته وحكايته ، فتعجب الفرسان من شجاعة قلبه ومن رميه بنفسه بين رجال الوادي ، ولما انتهى كلامه ، قال : الآن أسمعونا حكايتكم وسر مجيئكم لهذا المكان ؟!

بعدما أكل الأمراء والقادة الطعام قال صقر : بعد سفرك المفاجئ أيها الأمير ! أرسلت الرسالة لوالدك الملك ، فحزن حزنا شديدا عليك ، وكاد يعلن الحداد عليك ، وأرسل خلفك العيون فلم يعرفوا لك خبرا ، وبعد حين أتانا الغلام جُبار ـ الفارس الذي أرسلته لوادي السرحان ـ فأنبأني بأن الأميرة سُلمى أسيرة عند رجال الوادي باتفاق بينهم وبين الأمير الغادر ماجد .. وأنها فتاة مسكينة وجريحة .. وأن الأمير ماجد احتال عليها ، وسار بها خارج البلد على أنها ذاهبة لمقابلة الأمير قيس خارج أبواب المدينة ، وبعدما مشى بها حين من الزمن هجم عليهم

اللصوص فساقوهما نحو وادي السرحان ، وهناك علمت الأميرة أنها مخطوفة باتفاق الأمير ماجد مع رجال العصابة ، فبكت ما استطاعت البكاء ، ثم عاد ماجد لبلاده بالقصة المعروفة لك ، وصدق الناس أنهما تعرضا لقطاع الطرق .. استطاع جُبار الاختفاء في كهوف الجبل قريبا من الأميرة وعلم بقصتها ، وبينما هو يفكر بإنقاذها أتى زعيم اللصوص المسمى الغضبان وأخذها عنوة من أبي الليل وتبعها جُبار بخبث ومكر ، ولما علم بمطالبها من شيطان اللصوص عاد إليّ فأخبرني بالأمر فاتخذت جانب الحذر من رجال الغضبان ، فلما أقبلوا فمنهم من قتل ومنهم من أسر ، وتركنا أحدهم ليخبر قومه ، ثم عادوا كرة أخرى ، فغضب الملك خصيب حينئذ ، وأمر قائد الجيش ووزيره غراب بإعداد جيش لمقاتلة رجال وادي السرحان وتأديبهم فأشرت على أبي بقيادة هذا الجيش للوصول للأميرة التي استنجدت بنا ، وقد تمنيت أن تكون معنا ، وها قد استجاب المولى سبحانه .

قال الأمير قيس : لقد صدق حدسي عندما قلت لكم إن في الأمر مكيدة ، إن عينيها الساحرتين كانتا تتكلمان في وادي الثعالب .. فماجد اللعين حارس لها وعين في آن واحد إنه ليطمع بنكاحها لينقل الملك إلى قبيلته .. أرجو أن لا ينتشر خبر وجودي في الجيش أيها الأمراء والفرسان .. سأبقى متنكرا ورجلا من رجال الغضبان ، وسأعود للجبل أنا وعبس متظاهرين بالهرب والنجاة منكم .. وأنتم تابعوا مسيركم لقتال هؤلاء المجرمين واللصوص .. فنحن لم نعرف الخطة من نزولنا عن الجبل رغم معرفتهم بخروجكم لقتالهم .. أظن أننا كنا سائرين لبلاد الرايات لفعل أمر كبير .. في الليل القادم سأهرب أنا وعبس ونمشي إلى الجبل بغير خيل والآن اسمحوا لنا بالنوم أيها السادة .



قيس و سُلمى

استقبل غضبة الليل رجليه الهاربين بفرح كبير ، وسر من نجاتهما وفلتهما من الجيش الغازي ، وعلم منهم أن بقية الأسرى ساقوهم زرافات زرافات إلى مدينتهم وبلادهم الرايات ، وأخبروه أن الجيش ما زال مستمرا في الحركة لقتال أهل الجبل ، وكان الغضبان زعيم الوادي قد تلقى فشل رجله القوي بالغضب الشديد ، ولكنه تحمل الفشل وأجل الحساب حتى انجلاء المعركة القادمة ، وقد أدرك أن الملك خصيب مصمم على تدمير الجبل وعصاباته ، وكذلك قد أدرك غضبة الليل أن حياته أصبحت مهددة بالموت ، وأن نجاح الملك في المعركة معناه القضاء عليه فأخذ يفكر بالهرب قبل المعركة لينجو من قبضة سيده الجبار ، ولما أخذ الغضبان يتجاهله في اجتماعاته واستعداداته للتصدي للغزاة أطلع غضبة الليل بعض رجاله برغبته بالهرب والانفصال والنجاة بأرواحهم وأنفسهم ، فانزعج قيس وعبس لهذا الانقلاب ، وأصبح وضعهم في خطر ، فالهرب فيه خطر على حياتهم إذا فشلوا بالنجاة من قبضة رجال الغضبان الآخرين ، وإذا عرف الغضبان سرهم أيضا قد يقتلهم قبل محاولة الهرب .. فافتعلوا معركة مع بعض رجال غضبة الليل ، وهربوا نحو رجال الزعيم الغضبان وطلبوا حمايتهم ، فقبل هؤلاء حمايتهم عندما عرفوا أن زعيمهم يفكر بالهرب ، فألقى بهم الغضبان في سجن المدينة ، وهم في السجن حاول أحد الرجال قتلهم فكتفوه وسلموه لحراس السجن ، فارتفع وزاد غضب الغضبان على غضبة الليل وجماعته ، فأصدر أمره بالقبض على غضبة الليل ، فأبى الاستسلام ، ودارت معركة بين رجال الفريقين ، مما دفع الغضبان بدفع المزيد من الرجال لمحاصرة قصر غضبة الليل وقد أهدر دمه ، وقد حاول بعض الزعماء الموالين لغضبة التشفع له ، ولكن الغضبان الغاضب أبى وأصر على الثأر لرجاله الذين قتلوا ، وكبر النزاع فانحاز بعض الزعماء لغضبة الليل ، فارتفع حنق الغضبان وأدرك أن سلطته قد ضعفت وتهاوت على هؤلاء اللصوص ، ومن شدة حقده وقهره أمر بحرق القصر ـ قصر أو بيت غضبة ورجاله ـ على من فيه ، فارتفع الصراخ والصياح والهرج والمرج ، فخرج غضبة الليل ورجاله على خيولهم فقاتلوا

قتال المستميت حتى فتحوا ثغرة في الحصار المضروب عليهم ، ولكن كثرة رجال الغضبان تمكنت منهم فسقط غضبة الليل جريحا ، فأمر الغضبان بشويه حيا ليكون عبرة لكل زعيم يتمرد عليه ، ولم تجدِ توسلاته وصراخه ، فحرقه وحرق قصره وفتك برجاله إلا من استسلم سابقا قبل المعركة الأخيرة ، على أثر هذا الحدث المرعب الوحشي أخذ كثير من رجال العصابات يهربون ويبتعدون عن وادي السرحان ، فقد عمت الفوضى في الكهوف والجبال لهذا الحدث المرعب ، وقد نسوا كم من القرى حرقوا وقتلوا ودمروا خلال حملاتهم وغزواتهم ! وقبل وصول جيش الأمير صقر الذي يزحف رويدا رويدا وجد الغضبان ملك اللصوص نفسه أنه وحيد في الميدان ، ولم يبق معه سوى مائتين من رجاله، وقد تفرق عنه زعماء اللصوص الآخرون ، وقد وصلت إليه الأنباء بدخول الجيش الغازي بداية وادي السرحان وجبل ضراب فأشار عليه بعض رجاله الأشداء بالانسحاب وعدم تحدي هذا الجيش الزاحف ، وبعد تردد وممانعة قوية استسلم لفكرة الهرب فأعد النساء والأطفال للمسير أولا ، واحتاروا في أمر الكنوز والأموال التي يسلبونها من القوافل والمدن ، فأخفوها في كهف عميق في جوف الليل ريثما يعودون ، ولما تم أمر دفنها في جوف كهف عميق أمر قسما من رجاله باللحاق بقافلة النساء وكان الأمير قيس وغلامه عبس قد استغلا الفوضى التي دبت في الجبل والوادي وهربا من السجن ، وسارا خلف قافلة النساء وبعد مسير مضن أدركا قافلة النساء ، ولكنهم وجدوها محاطة بحراسة مشددة ، فلم يتمكنا من الوصول إلى خيمة الأميرة سُلمى ، وذات صباح وهم ما زالوا يلتمسون حيلة يصلون بها للأميرة سمعوا صريخا وضجيجا في خيام النساء ، فأصغوا السمع فعلموا أن الأميرة سُلمى قد اختفت ، ولم تبت الليلة الفائتة في فراشها ، فأدرك الأمير أن الأميرة قد هربت أو تعرضت لسوء وغدر جديد ، ولاحظ أن القوم توقفوا عن البحث ريثما يصل ملكهم ، ولم يتابعوا البحث عن الأميرة الغائبة ، فقام الأمير وغلامه عبس بمهمة البحث وبعد يومين من تعقب الآثار أدركوا الأميرة في أحد الوديان مع غلامه جُبار ، ولما شاهدهم جُبار من بعد ظن أنهم من رجال الغضبان ، فاستعد للقتال فأشهر سيفه حتى اقترب منهما

الرجلان فصاح فيهما : لن تأخذوها حتى تقتلوني .

وكانت الأميرة منهكة القوى من كثرة المشي وفي وضع حزين ومؤلم ، وسمعت كلام جُبار للرجلين فاستعدت هي الأخرى للموت والقتال فأشهرت سيفها وتمنت لو أنها تركب جوادا ولكنها قبل اللحاق بـجُبار الذي كان يعترض الرجلين ويتقدمها باتجاه الرجلين بعشرات الخطوات فوجئت به يعانق الرجلين ، ويقبل يد أحدهما ، ولولا ثقتها بإخلاص الغلام لها ، وقد رافقها منذ شهور في وادي السرحان لظنت فيه المؤامرة والخيانة ، ولكنها لما أمعنت النظر في عيون القادمين عرفت من هو هذا الرجل ؟ .. فهذه عيون قد رأتها منذ سنة أو أكثر في وادي الثعالب فاهتز قلبها وخفق خفقانا شديدا وهمست : الأمير قيس !

فقال بهمس وهو يقترب منها : أجل أيتها الأميرة أنا قيس بن خصيب قد وصلت إليك أخيرا كيف أنت ؟!

فقال بذهول وخشوع : بخير .. إنني بشوق لرؤيتك أيها الشجاع !!

فقال : لا بأس عليك .. ها نحن التقينا كما تواعدت عيوننا !

وجلسا على الأرض يتحدثان ويتناجيان حتى سمعا عبس يقول : أيها الأمير .. أسمع حوافر جياد في قلب الوادي .

فقال جُبار : ربما كانوا من رجال الغضبان .. فإذا اكتشف الغضبان هربنا لابد أنه سيلحق بنا فهو لا يرضى بالهزيمة مرتين .

ولم يطل الانتظار فقد ظهر بضعة رجال يركبون خيولهم وجيادهم ، ولما لمحهم عبس جيدا عرف أنهم من رجال الغضبان فقال للأمير : تسعة رجال وتسعة جياد !

امتشق الأمير الفارس سيفه وهزه بضع مرات في الهواء حتى علا أزيزه ، وشاهدهم الفرسان من بعيد ، فاندفعوا نحوهم فرحين ومسرعين ، وكان بعضهم يعرف الربيع ومسعودا فدهشوا لوجودهم مع الأميرة ، ولما وصلوا إليهم فقال رئيسهم بصوت عال مخاطبا للأميرة : لقد جن الزعيم من هربك أيتها الأميرة ! .. أنت سبب كل هذه البلايا ثم تهربين ! وأنتم ما الذي

جمعكم بالأميرة ؟ ألم تهربوا وتخرجوا من سجن المدينة ؟!

فتقدم عبس مسعود منهم ووقف أمامهم وهو يصيح فيهم : أيها الرجال .. اهربوا قبل فوات الأوان .. فهذا الأمير قيس بن خصيب ، وقد أقبل إليكم لإنقاذ محبوبته الأميرة سُلمى ابنة جعد .

فتهامس الرجال بدهشة ورددوا : الأمير قيس !! الأمير قيس !!

فهتف قيس : نعم أنا الأمير قيس فارس الغبراء .. وأنا تركت الملك والديار والأهل للوصول للأميرة .. وها هو جيش والدي الملك قادم لإنقاذ الأميرة أيضا .. فالنصيحة أن تهربوا كما هرب أسيادكم .

فتناقش الرجال فيما بينهم وقال رئيسهم : أيها الأمير .. لا يمكن العودة بدون الأميرة فالقتل مصيرنا .. فلنتحارب فهنا موت وهناك موت .

فقال الأمير : أنا أعطيكم الأمان .

فقال رئيسهم : لا نريد أمانك ، نريد الأميرة الخائنة .



نشبت معركة شرسة بين الفرسان واللصوص ، وقد تمكن الأربعة من قتل خمسة وجرح أربعة فصرفهم قيس ، وبعدما استراحوا قليلا ركبوا جياد القتلى وأخذوا الجواد الخامس ، وساروا نحو بداية وادي السرحان حيث جيش بلادهم ، وبعد أيام من السير المتتابع وصل الأميران وعبس وجبار الجيش ، ففرح الأمراء بعودة قيس والأميرة معافيين ، وأرسل صقر بشيرا للملك خصيب ، وتابعوا المسير نحو مدينة اللصوص ، وقاموا بتدميرها ، وأعملوا فيها النيران ، ومكثوا هناك أياما ، ثم أخذوا بالعودة ، وبعد حين وصلوا لبلاد الرايات ظافرين منصورين فرحين ، وسر الملك خصيب بعودة ولده بعروسه من بين لصوص ومجرمي وادي السرحان ، وتقرر ذهاب الوزير غراب لبلاد أبي كبشة للاتفاق مع الملك جعد على زواج الأميرة سُلمى

وكان الوزير قد أرسل غلاما له ليبشر الملك بحياة ابنته ، ولكن الغلام رجع بأخبار سيئة ، فقد وجد أن الأمير نحاس قد طرد الملك ، وشرد عشيرته ، وحبس الوزير النبهان وكبار الخصوم وذلك بعد معارك دامية بين العشيرتين ، واستولى على الملك عنوة ، ولما علم الملك خصيب بهذه الأخبار غضب أشد الغضب واستاء منها وأصابه الضيق والغم ، وأخذ يفكر بغزو بلاد الأكباش ولكن الوزير غراب أمره بالصبر والتريث حتى يعلموا أين هرب الملك جعد ؟ وجاءت الأخبار بعد حين يسير ، فقد نزل ضيفا على أحد الملوك ، وأنه هلك في إحدى البلاد المجاورة تأثرا وحزنا ، وقد قتل كل أولاده وكثيرا من أمراء عشيرته خلال المعارك مع قبيلة نحاس ومن حالفهم ضد الملك جعد ، ومن تأثره بالحادث الصعب صدم ، وأصيب بموت مفاجئ ، فقال خصيب بغضب : لابد من قتل نحاس وأولاده .. كيف يهلكون ابن عمنا ونسكت على ذلك ؟!

فقال الوزير : بلادهم بعيدة عنا أيها الملك السعيد ! وعشيرة نحاس كثيرة الأفراد .. ولا وريث للعرش بعد مقتل أفراد وأسرة الملك جعد .. سأرسل بعض خاصتنا للاجتماع برجال الملك الميت ، ونرى رأيهم ، ثم نقرر الخطوة القادمة .

حزنت الأميرة سُلمى حزنا شديدا على موت والدها وأهلها واخوتها ، وحقدت حقدا عظيما على خالها نحاس وأمها ومقتتهم مقتا قاتلا ، وزاد حنقها على ماجد ، وصممت في أعماق نفسها على الثأر والأنتقام ، ووعدها الأمير قيس خيرا ، وأن يدعمها بجيش من جيوش أبيه حينما تأتي ساعة الثأر والإنقاذ وقال : ولكن علينا أن ننتظر عودة رجال الوزير غراب قبل الإقدام على شيء أو التسرع في الأفعال .

تأجل زواج الأميرين عدة أشهر حتى هدأت الأحوال وهدأت نفس الأميرة على قتلاها ، ثم عقد النكاح ، وتزوج الأمير قيس الأميرة سُلمى بنت الملك جعد ، وأسكنها في قصر الأقواس ورغم الاحتفال البهيج بالزواج كانت الأميرة حزينة جدا يوم فرحها ، ولولا المشقة والجهد الذي بذله قيس ورجاله ؛ لإنقاذها وإخراجها من وادي السرحان لربما عزفت عن الزواج ،

فقد كان قلبها أسود من الحقد والكره لـماجد وأبيه نحاس .



عندما علم الهاربون من قبيلة الملك جعد بحياة الأميرة سُلمى أخذوا يتوافدون على بلاد الرايات من كل حدب وصوب ، فكثرت أعدادهم في المدينة ، فأنشأ الأمير قيس مدينة جديدة بين بلاده وبلاد أبي كبشة سماها مدينة سُلمى على اسم زوجته ، وانتقل إليها وأخذ يحشد فيها رجال بلاد الأكباش ، وكان الأميران يتنقلان بين المدينتين ، وبعد خمس سنوات من الإعداد للمعركة دخل الأمير قيس على والده الملك يطلب منه قطعة من جيشه ، والإذن بمحاربة الملك نحاس ، وليسيروا إلى مملكة الملك جعد بن همام للثأر ، فبارك الملك الشيخ خصيب هذه الخطوة ، وأمر وزيره غراب ببذل الجهد المناسب لمساعدة الأميرة سُلمى باستعادة عرش أبيها ، وكان يرون أنه من حقها ومن حق أولادها من الأمير قيس ، وبعد أيام كادت مدينة سلمى تخلوا من الناس ، عندما خرجت القبائل الموالية للأميرة لمحاربة الملك نحاس وعشيرته ، وكان الملك نحاس وقومه على علم بتحركات الأميرة سُلمى ؛ ولكنهم لما رأوا تلكؤها ظنوا أنها قنعت بالحياة في بلاد الرايات ، وقد فكروا باغتيالها أكثر من مرة ؛ ولكن حذرهم من غضب الأمير قيس ووالده كان يمنعهم ، ولما علموا بقدومهم للثأر والانتقام ، تقرر أن يخرج عقاب أكبر أبناء نحاس لمحاربة جيش الأميرة قبل وصولهم للبلاد ، فهم لم يطمئنوا بعد للبطون والأفخاذ التي تقطن مدينتهم بعد ، فالتقى الجيشان على بعد مسيرة يومين من بلاد أبي كبشة ، ودارت المعركة العنيفة بين الفريقين ، وبعد أيام من القتال الدامي والشرس أخذت جنود الأمير عقاب تتقهقر وتنسحب ، فما هبط الظلام حتى خلت أرض القتال منهم فقد هربوا وتركوا جرحاهم وخيامهم وقدروهم وقفلوا عائدين لبلادهم ، فسر الأمير قيس لهذا النصر ، وأمر بإسعاف الجرحى وإرسالهم لمدينة سُلمى مع الأسرى والمستسلمين حتى تنتهي المعركة الفاصلة ؛ فينظر في أمرهم ، ودفن القتلى من الفريقين.

ولما عاد الأمير عقاب لوالده مهزوما قلق القوم ، وتعاهدوا من جديد على القتال والصمود ، بل أرسلوا رسالات لبعض الملوك المجاورين يطلبون مساعدتهم وتدخلهم مقابل الأموال ، وأكثرهم اعتذر ورفض التدخل في هذا الشأن؛ ولكن الملك جنيدة بن غالب ملك بلاد المر وافق على المساعدة مقابل ألف ناقة وألف جواد وألف سيف وألف رمح وعشرة آلاف قطعة من الذهب،وبعد تفكير بمطالب الملك جنيدة رضي الملك نحاس بذلك ، وتم الاتفاق على ذلك ، فأرسل لهم الملك ألفي فارس من أشد فرسانه، وذلك بعدما وصله جزءا من هذه القيمة ولم علم الأمير قيس بذلك التحالف كتب إليه كتابا يحذر فيه الملك جنيدة من التدخل ، فسخر منه وأهان رسوله ، فتوعده الأمير قيس توعدا شديدا ، وأرسل لأبيه والوزير غراب يعلمهم بذلك التدخل، فاشتد غضب الملك خصيب على جنيدة ، فأمر بإعداد جيش لجب لغزو بلاد المر ، وكان على قيادة الجيش الأمير الشجاع صقر بن غراب ، ولما وصلت الأخبار للملك جنيدة ندم على تدخله بين الفريقين عندما رأى أن الحرب ستنقلب على بلاده ؛ ولكنه أصر على التحدي والصمود ، وأعد آلاف الفرسان لملاقاة جيش بلاد الرايات .

ولما استراح جيش قيس من أثر المعارك تقدم بهم نحو مدينة الأكباش ، وبعد أيام أحاط بها من جهة الغرب ، وخرج لهم ثانية الأمير عقاب بن نحاس ، وخرج معهم جنود الملك جنيدة ودارت معركة كبيرة بين الطرفين ، بذل فيها الفريقان كل قوة وصبر وثبات ؛ ولكن بعد أيام من الصراع وضح للجميع أن فرسان الأمير قيس وفرسان الأميرة سُلمى أشد وأقوى ، وأن رجال جنيدة لم يفعلوا شيئا يذكر ، فازداد خوف نحاس وزعماء قبيلته من العاقبة ، فظهر فيهم الانقسام ، وأخذ الكبار يعاتبون نحاسا على إصغائه للصغار والشباب وحماسهم ، وطالبوه بإخراج الوزير النبهان والسادات من قبيلته وقبيلة الملك الراحل جعد ومحاولة الصلح مع الملك خصيب والأميرة سُلمى ، ومع اشتداد المعارك وكثرة القتلى في فريقه أمر بإحضارهم من السجن ، وحاول التفاهم معهم ، فأجاب الوزير النبهان : بعد كل هذه السنوات تريد التفاهم معنا يا نحاس ؟!

فصاح بعض الشباب : صهٍ أيها الحقير .. قل الملك نحاس .

ضحك الوزير المحبوس النبهان منذ سنوات وتمتم هازئا : الملك نحاس!.. يا الله ! .. دافعوا عن هذا الملك .. إيه لقد نسيتم عاقبة الظلم والافتراء ، وتحلمون بأمجاد قديمة نسيتم ما صنع آل جعد لهذه البلاد وللعباد !

فقال نحاس: أيها الوزير ! أنت رفضت وزارتنا وقبلت السجن وفاء لمولاك الهالك .. ولم نأت بك لنسمع مثل هذا الكلام .. رأى كبار قومنا أن يجعلوك شفيعا لنا عند الملك خصيب والأميرة سُلمى وستذهب رسولا منا ، وسيرافقك بعض سادة العشيرة ومن آل جعد أيضا .. فنحن نريد أن نسمع شروط الصلح .. فالحرب كما تعلم أخذت الكثير من الأنفس والشباب والرجال .. فالصلح سيد الأحكام أيها الوزير .

وبعد جدال وعتاب وافق الوزير بالسير لملاقاة الأمير قيس وزوجته الأميرة سُلمى ، ولما اجتمع الوزير بالأميرة وزوجها وعرض عليهم صلح نحاس قالت الأميرة هازئة حانقة : وعلى ماذا نتصالح ؟! على وقف القتال فحسب ؟!

فقال الوزير : على حقن الدماء وحل المشاكل بالكلام والسلام .

فقال قيس : لا كلام ولا سلام .. الحل الوحيد القتال حتى الموت أو الاستسلام ، ولا مكان لقبيلة نحاس وعشيرته في هذه المدينة .

فقالت سُلمى : وأن يسلم لنا الأمير ماجد بن نحاس ليأخذ جزاءه ، ثم يخرجون من المدينة من غير خيل ومال وسلاح .

ولما سمع الوزير شروط الأميرة للصلح ، قال النبهان لشيوخ عشيرة نحاس: ها أنا نقلت رسالتكم للأميرة ، فانصرفوا راشدين ، وأما أنا فسأبقى عند ملكتنا الجديدة .

وعاد شيوخ عشيرة نحاس فأخبروه بشروط الأميرة وتصرف الوزير النبهان ، فعض على أنامله من الغيظ ، فصاح ماجد : يا أبي ! علينا أن نقاتل حتى الموت .

فقال نحاس يائسا : هذا هو الحل .. سأخرج غدا للقتال بنفسي .

وتجدد القتال بين الفريقين ، وتمكن أحد قادة الأمير قيس من اقتحام المدينة أثناء القتال ، فدب الصريخ في المدينة أن جنود الملك خصيب دخلوا المدينة ، فانهار جيش نحاس وتفرقوا يمينا وشمالا ، وسقط نحاس جريحا ، فسيق إلى خيمة السجن ، وما أتى الليل حتى كان قيس والأميرة سُلمى يدخلان قصر الأمارة والسلطان ، ويعطيان الأمان للناس والجنود الهاربين ، وكانت سُلمى قد كلفت بعض رجالها وأقاربها بالبحث عن جثة الأمير ماجد ، فلما ظهر الصباح كانت المدينة قد بايعت الأميرة سُلمى ملكة على البلاد والعباد ، وأمرت الملكة الجديدة كل رجل من قبيلة نحاس قد اختبأ في بيته أن يخرج من المدينة ناجيا بروحه فقط ، ومن نجا من جنود جنيدة سيق للسجن ، ولم يجدوا ويعثروا على جثة الأمير ماجد ، فقالت الملكة لنفسها : لابد أنه هرب قبل سقوط المدينة !

وبعد أيام يسيرة عاد الهدوء للمدينة ، وجمعت الأموال والخيول ، فأمرت الملكة بإعطاء جنود الملك خصيب كل فارس وجندي جوادا وعدة حرب ومائة قطعة ذهبية ، ومن قتل خمسمائة قطعة ذهبية لأهله ، ونبذ نحاس في السجن ، ومعه كبار عشيرته وأبناؤه الذين لم يقتلوا اثناء المعركة الفاصلة .

ضياع الأمير

وبينما أهل مدينة أبي كبشة غارقون بالأفراح والليالي الملاح ، وقد أرسلوا البشائر للملك خصيب بن مرار ، جاءتهم أخبار مؤلمة خصوصا للملكة الجديدة سُلمى والأمير قيس دخل عليهم جُبار الخادم المخلص ليلا ، وأسر لهما خبر ضياع الأمير الصغير سيف الزمان .. ابنهما البكر ذو الأعوام الأربعة ، تفاجأ الأمير والملكة لهول الخبر ، ولما تماسكا أعصابهما التي اهتزت قال قيس : كيف ذلك أيها اللعين ؟!

فقال الخادم الأمين بحزن ودموع : لا ندري كيف غفلت عنه العيون يا سيدي الفارس؟! نحن نتابع أخباركم ورسائلكم ، وقد سررنا بانتصاراتكم ، وقبل أيام كانت الجارية نعمة تلاعب الأطفال الثلاثة في أطراف قصر الأميرة في مدينة سُلمى كما تعلم ، وعطش الأميران الصغيران فذهبت بهما الجارية لتسقيهما ، وتركت الأمير البكر سيف الزمان يلعب على الأرجوحة ، ولما دخلت القصر سمعت صرخة ؛ ولكنها لم تهتم بها ولم تكترث لها ، فلما أسقت الأمراء عادت حيث تركت الأمير الصغير فلم تجده على الأرجوحة ، فنادت هنا وهناك ولم تسمع ردا ، ولم تشعر بحركة فتذكرت الصرخة .. فتمشت نحو الأسوار ظانة أنه تسلق على السور وبحثت بين الأشجار فلم تجده ، فأسرعت إليّ ، فنهضت مسرعا أنا والغلمان الآخرون نبحث عنه ، فلم نعثر عليه داخل أسوار القصر ولا حول القصر ؛ ولكننا وجدنا خطوات غريبة وآثار أقدام تتجه ناحية السور القريب من مكان لهو الصبي ، أبلغت رئيس الحرس الفارس كراز فأمر بالبحث في أطراف المدينة وحول القصر ، فلم نجد له أثرا ، فقد اختفى أو سرق الأمير ، ولما يئسنا من البحث جئت إليكما بهذا الخبر السيئ ..

وبعد صمت قاتل همست الأميرة قائلة : أتظن أن ماجدا اللعين قد فعلها ؟!

تطلع الأمير في عينيها وقال ببطء : أتظنين ذلك ؟! يا الله !! يا ويله !!.. سأقتله شر قتلة وأشرب من دمه اللعين .. هذا جبن ونذالة !! سأعود للبلاد يا ملكة سُلمى .. ابقِ هنا لترتيب أمر هذه البلاد وسأطلعك على الأخبار أولا بأول ..

ذرفت الملكة سُلمى الدموع الغزيرة وقالت من بين الدموع المنهمرة كالمطر : إنه حقود !! مجرم قاتل !! سأبحث عنه في كل بلاد الدنيا وأهلكه .

فقال الأمير قيس : سأرسل عبس الشجاع وراءه .. ابحث لي عن عبس يا جُبار وسنتحرك صباحا إلى المدينة .

أحضر جُبار عبسا، فأطلعه الأمير قيس على جلية الخبر فحزن وأسف ، ثم قال متسائلا : أتظن أنه استطاع الفرار والوصول لبلادنا بهذه السرعة ، وأن يـفعل هذه المكيدة إني أشك في ذلك ، فيوم المعركة الأخيرة كان ماجد هذا بين الفرسان ، فقد سمعت صوته وكنت قريبا منه قبل أن يتوارى عن الأنظار .

فقال قيس : ليس لنا أعداء إلا هو !

فقال عبس باسما : ويح الأمير!!.. فنحن لنا أعداء كثر ، كل قوم ماجد أعداء لنا ، ولا تنس الملك جنيدة .

فقال : ولكنه مشغول بالحرب مع بني قومنا .. وما الغاية من خطف ابني ؟! .. فـماجد هو صاحب المصلحة الأولى في إيذائي أنا والملكة أم سيف .. هذه مهمتك يا صديقي العزيز ؛ فأنا راحل مع الفجر نحو البلاد لأدبر الأمور ..

حزن الناس لما عرفوا بقصة اختطاف ابن ملكتهم ، وأصاب الملك خصيب حزنا شديدا على فقد الأمير الصغير ، وكادت تذهب روحه من الأسف والبكاء على الحفيد الغالي ، وانتشرت عيون قيس و خصيب في البلاد والأمصار ؛ ولكن لا حس ولا خبر ولا أثر هجر أكثر الناس مدينة سُلمى بعد رحيل قيس و سُلمى عنها ، واجتمع الوزير غراب بالتجار وطلب منهم البحث والسوأل عن ابن أميرهم أثناء رحلاتهم وتجاراتهم .. وأثناء البحث أخبر الأمير صقر الملك خصيب أن الملك جنيدة يرغب بالاستسلام والصلح ولقاء الملك ، فبعد تشاور أمر الملك خصيب القائد صقر بوقف القتال وإرسال الملك جنيدة وفدا من قومه لإتمام الصلح ، وبعد حين أقبل الملك جنيدة على بلاد الرايات يطلب العفو والسماح من الملك خصيب

بعدما قبل رأسه ويديه واعتذر وتأسف وندم لتسرعه بالتحالف مع الملك نحاس الغاصب لعرش بلاد الأكباش .. وبعدما تم الصلح كان من ضمن شروطه أن ينكح الملك جنيدة ابنته الوحيدة للأمير قيس ، فرضي بذلك النسب وتصالحوا على القتلى وجرى الصلح بينهم .. وعاد جنود الملك خصيب إلى البلاد ، وبعد ردح من الزمن تم زفاف الأميرة الشماء على الأمير قيس بن خصيب .

وكان قيس يقضي فصل الربيع في بلاد أبي كبشة عند زوجته الملكة ، ثم يعود لبلاده ثانية ، وحاولت الملكة أخذ أولادها عندها ، فرفض الملك خصيب ذلك حتى يكبروا ويصبحوا شبانا فالأمير مرعي أصبح ابن ثلاث سنوات ، والأميرة الصغيرة ابنة سنة ونصف واسمها الأميرة جميلة .. وكانت الملكة تتردد على مملكة خصيب في فصل الخريف فتمكث أسبوعين ثم تعود لإدارة شؤون مملكتها ، وسر الأمير قيس بابنة الملك جنيدة الشماء ، واكتمل فرحه عندما وهبهما الوهاب منها ابنا جميلا مثلها ، فعمت الأفراح في الممالك الثلاث ، ولكن الغصة بفقد الأمير سيف الزمان ما زالت في حلوق القوم ، ولكن الأيام تنسي وتضعف الذكرى ، ولم يتمكن عبس وجُبار وغيرهم من رجال وحاشية الأمير قيس من الوصول للفاعل والخاطف ، وفشل مثلهم التجار بسماع أي خبر يخص الأمير المخطوف ..

وأتت السنون وقضى الملك خصيب نحبه ، وأقيمت عليه الأحزان وأطعم الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام ، وذبحت عنه الأنعام ، ووزعت عن روحه الأموال ، ثم بويع قيس بالملك وريثا لأبيه خصيب .. والعجب أن الفرس دموع فرس خصيب قد ماتت بعده بأيام قلائل فتعجب الناس من ذلك ..

حادثة في الغابة

نحن الآن بعد عشرين عاما مضت على ملك قيس على بلاد الرايات ، وقد أعلن الأمير مرعي ابن الملكة سُلمى الشاب الصغير ملكا على بلاد الأكباش ، فقد تنازلت والدته عن العرش ، وكثر ترددها على بلاد زوجها ، وأصبحت ابنتها جميلة شابة حسناء مطلب الفرسان والأبطال من أبناء الأمراء والوزراء في بلاد الرايات ، وقد ترك الملك قيس أمرها لنفسها لتختار من تشاء من الرجال بعلا لها ، فكانت تصدهم بلطف واعتذار مهذب .. وذات نهار ركبت جوادها وسارت معها ابنة الأمير صقر الأميرة عبلة ، وابنة الأمير عبس الأميرة حُسن وغيرهن من الفتيات الأميرات ، وخرجن على جيادهنّ نحو الغابة الكبيرة المحيطة بالمدينة من ناحية الشرق ، وكن سعيدات مرحات وهن يتراكضن على خيولهنّ ، ويسخرن من بعضهن البعض ، ويمزحن بصوت مرتفع ، والسرور يملأ وجوههن وعيونهن ، وعند العصر وبينما هنّ غارقات في اللهو والمزح والسرور والمرح والسعادة ظهر بينهن فجأة فارس على جواد أحمر شاب جميل الصورة ، وإن كان في وجهه كثير من الندبات وآثار الجروح ، وكانت الشجاعة تظهر على محياه ، وقد فوجئن به ، وهو أيضا قد فوجئ بهن ، ولكنه تمالك نفسه سريعا وقال صائحا محذرا : اركبن جيادكنّ أيتهنّ الفتيات واهربن بسرعة !



فتلكأن رويدا ثم قالت إحداهن بجرأة : من أنت ؟! ومن أنت لتأمرنا ؟ !وما الذي أتى بك إلى هنا ؟!

فتبسم الشاب لها وقال : خلفي رجال يطاردونني .. أخشى عليكن منهم ، فاركبن جيادكنّ وانصرفن قبل فوات الأوان .

فسخرن منه ومن تحذيره ، وإن أحسسن بالخطر من وجوده بينهن بهذه الصورة المخيفة ، وقبل أن يتمادين بالسخرية معه ظهر ثلاثة رجال على جيادهم كأنهم يطاردونه فداروا حوله ، وقال أحدهم بصوت عال : الزعيم يأمرك بالعودة .. ويحذرك من التمرد ومن غضبه يا سيد الفرسان

ثم انتبه الفارس المتكلم للصبايا فقال بدهشة : أوه ! من هؤلاء الجميلات يا سيد الصعاليك ؟
والتفت إليهن وقال : من أنتن أيتهن الفاتنات ؟ ومن أي البلاد أنتن ؟!
أخذت الفتيات يركبن ويعتلين جيادهن والقلق مرتسم على وجوههن ، فلما لم يسمع الرجل جوابا منهنّ ، قال للفارس الأول : من هؤلاء أيها الأمير ؟!
فهز الفارس الشاب رأسه قائلا : لست أدري .. إنهن يتنزهن هنا .
فقال الرجل المطارد مخاطبا الفتيات : هل أنتن من بنات بلاد الرايات ، فهي أقرب المدن لهذه الغابة ؟
فهززن رؤوسهن بـ نعم
فقال : يا أمير الفرسان ما رأيك بأخذهنّ للزعيم فسوف يصفح عن إهانتك وخروجك ؟!
فقال الفارس الشاب بجسارة : حذار يا قرادة من مس أي فتاة بسوء .. اذهبن بسلام أيتهنّ الناعسات .
فصاح المدعو قرادة : لا تتحركن قبل أن تنبذن الدمالج والأساور والأقراط والقلائد اللواتي تحلين بهنّ أنفسكن ..
فقال الفارس الشاب مرة أخرى بحدة وقوة : قرادة .. لا تدعني أقتلك ..إياك أن تأخذ شيئا من هؤلاء الحسناوات .
فصاح رجل آخر : لا داعي للتظاهر بالشجاعة والشهامة يا سيد الفرسان !.. ارجع للزعيم قبل أن يهدر دمك .. ودعنا نتصرف مع هؤلاء النسوة .
ولم ينتظر القائل ردا بل اندفع نحو الفتيات ، فأشهرن سيوفهن بلمح البصر وأردينه قتيلا ، فدهش الرجال لسرعتهن وشجاعتهن ، فأخذ سيد الفرسان يقهقه عاليا ويقول شامتا : أقدم يا قرادة .. جرب نفسك ها هو صاحبك ربع سقط مجندلا بدمه .
اشتد حمق وغضب قرادة لمقتل رفيقه ولسخرية الشاب منهم ، وأمر رفيقه بالمشاركة بالهجوم عليهن ، فتصدت الأميرات لهم ، وجرحن قرادة جرحا بليغا فسقط على الأرض يتلوى من

الألم والغيظ ، ثم تبعه صاحبه ..

فقال الفارس : آلله .. آلله .. آ لله .. !! لقد خلصتنني من شرهم ومن الفتك بهم .. وداعا يا قرادة .. لقد أشفقت الفتيات من قتلك .. وداعا ..!

وحيا الفتيات الثائرات بيده ملوحا بعد أن شكرهن على شجاعتهن ، وقبل أن يبتعد سمع إحداهن تصيح عليه : أيها الشاب الفارس .. لم نعرف قصتك ؟! واسمك ؟!

نظر إليهنّ وتبسم وقد أدار جواده ناحيتهنّ وقال بروية : نحن لصوص !.. وقطاع طرق ! .. لسنا من الأشراف ، فلا تشغلن أنفسكن لمعرفة اسمي ! وداعا يا بنات حواء .

واختفى في جوف الغابة ، وبعد زوال الدهشة عنهن قفلن عائدات إلى المدينة ، وهن غير نادمات على قتل هؤلاء اللصوص ، واتفقن على أن لا يذكرن هذه الحادثة لأهلهن خوفا من منـعهن من الخروج للغابة ثانية أو إرسال الحرس معهن ، ولكن قصة الشاب المطارد ما زلن يحلمن بسماعها،ومعرفة سبب هربه من هؤلاء ، وعدم طمعه بذهبهن وزينتـهن مع اعترافه بأنه لص وقاطع طريق ، وفي الصباح التالي لهـذه المعركة تـفاجأ أهل المدينة صباحا باختفاء فرس من جياد الملك قيس الفرس ورد ابنة الفرس دموع المشهورة .. فقد وجدوا الحرس والسائس نياما والفرس مفقودة .. كانت حادثة كبيرة جدا في المدينة والبلاد .. اصطبل الملك يتعرض للسرقة .. فتعجب الناس من جرأة اللصوص أو اللص ، وكانت الأميرة جميلة تتحدث مع الأميرة عبلة بنت صقر وحُسن بنت عبس ، وكان الاستغراب والإنزعاج مرتسم على وجوههن فقالت عبلة : هل ترين لما حدث معنا مساء أمس في الغابة علاقة في هذه الحادثة العظيمة ؟!

فقالت حُسن : ولكن هل يستطيع رجل واحد تخدير الحراس ويأخذ الفرس وحده وبدون مساعدة ؟!

فقالت جميلة : هل يا ترى للشاب الذي فارقنا يدا في الموضوع ؟! .. ولكنه مطارد ويدعونه للعودة إلى زعيمه وسيده المجهول .. ولكن لديّ إحساس أن للقاء البارحة مع هؤلاء المجرمين

يد في شأن الفرس ورد .. من تجرأ على إيذاء الملك قيس بن خصيب ؟!

فقالت عبلة : هل نصارح الآباء بحادثة الغابة ؟!

أجابت جميلة ابنة الملك قائلة : إنني حائرة لدرجة كبيرة .. أخشى أن لا يكون لحادثة الغابة شأن بأمر الفرس .. فلنصمت وننتظر تتطورات الحكاية فالأمر شديد الغموض!

تم إلقاء القبض على قرادة وسرماح جرحى في الغابة وبجوارهم القتيل ربع فاقتيدوا للمدينة وهم في آخر رمق من الحياة ، فقدم لهم الدواء وادعيا أنهما تخاصما مع القتيل فجرحهما وتمكنا من صرعه ، فأمر الملك بعلاجهم والعناية بهم حتى يتأكدوا من قصتهما .

مضت بضعة أشهر ولم يعرف الملك من سرق الفرس التي ورثها عن أبيه خصيب ؟ وكان الوزير غراب العجوز مستغربا للحادثة ، وتذكر أيام زواج الأمير قيس ومحاولة سرقة الفرس دموع من قبل رجال وادي السرحان ، فاجتمع بابنه الوزير عقاب الذي حل محله في الوزارة وتحدث معه في ذلك الماضي ، فتذكر الوزير عقاب ذلك ثم قال معقبا : الجبل !! .. تلك قصة قديمة يا أبتاه ! .. هل ظهرت أميرة جديدة تبتغي الفرس مهرا لها ؟!

فقال الوزير الشيخ الكبير : الفرس دموع وذريتها مطلوبة من الملوك والأمراء .. فابحث عن رجل شجاع نجيب عارف بحيل ومكر اللصوص ؛ وليرود لك جبل ووادي السرحان .

فقال عقاب بحيرة : يا أبتي! .. من الرجل الفطن الذي يحسن القيام بهذه الريادة ؟ .. لقد كبر جُبار .

فقال غراب : يا ولدي ابحث سوف تجد.. فالشجعان متيسرون في كل وقت وحين ، وليبق هذا الأمر مخفيا بيننا وبين رجلك أيها الوزير .

اهتم عقاب الوزير باستشارة أبيه ؛ ولكنه في قرارة نفسه كان يستبعد أن يكرر رجال الوادي غلطهم القديم ، ولكن الناس تنسى ، فلعل لهم زعيما جديدا قد نسي ذاك الماضي ، وكان يقول : لديّ ثلاثة رجال يمكنني أن أثق بهم في هذه المهمة المرعبة والقاسية ؛ ولكنهم شجعان ومضرب المثل في الشجاعة في بلاد الرايات .. أحدهم ابن الأمير عبس الأمير أشجع ، فهو

فارس بطل كأبيه ، وهناك ابن أخي صقر الأمير أسد بن صقر وثالثهم الفارس حازم بن حمدان الحملي ، وهذا الأمير أفرسهم وأذكاهم .. سأتحدث معه ؛ فإذا وافق وعاد سالما سأنكحه ابنتي رماح ، لا أظنه يرفض إذا سمع بهذا الزواج .. هل أصارح أبي بذلك ؟ سأفعل حتى لا يرفض هذا الاقتران إذا رجع سالما.. أبي يحب أن تبقى بناتنا في عشيرتنا .. ولكن الفارس حازم لا يفرط فيه ، فنعم الصهر ونعم البعل ، ونجاحه في هذا المهمة ستقر به أعين القبيلة وأبي قبلهم وبعد أيام عاد الوزير عقاب للتشاور مع أبيه في شأن إرسال الفارس الذي وقع عليه الخيار حازم بن حمدان الحملي ولما سمع غراب بقصة الزواج تردد كثيرا قبل أن يوافق وقال : أنت تعلم يا عقاب أن بنات أرباح - عشيرة الوزير غراب ـ لا تنكح إلا لأبناء العشيرة أو عشيرة الملك .. وأما رجالنا فيتزوجون ممن يشاءون .. وهذا عهد سرنا عليه قديما ، ولم يشذ عنه إلا بعض الأفراد لأحوال خاصة .

فقال عقاب : يا أبتاه ! .. القوم يعيبون علينا هذا التعصب لهذا المبدأ ، ولن يضيرنا بين الحين والآخر لو تساهلنا في الالتزام بهذا التقليد العشائري .. الفارس حازم من خيرة فرسان البلاد ، وله مستقبل في حرس الملك الكبار، وكذلك لا تنسى أن والده قتل في معارك الشرف ، وعمه من السادة القضاة ، فلا ينقصه شرف .. والمسير لوادي السرحان فيه مخاطرة كبيرة ، وإذا لم يكن أمامه إغراء كبير لا أراه يندفع لهذه القضية ، فالأمير قيس والأمير عبس وجُبار لولا الملكة سُلمى ما انطلقوا إلى وادي السرحان في تلك الأيام .

فتنهد الوزير الشيخ تنهدا عميقا وقال مستسلما : إنك تقول الصواب يا ولدي ! لابد من المحرك والمشجع .. فهذه قصة خاصة .. افعل ما تراه صوابا ، والحق أنني فكرت بإلغاء هذا التقليد القديم في أسرتنا الكبيرة من أيام الملك خصيب ، فكثير من فتيات القبيلة تحرم من الزواج إذا طلقت أو ترملت أو كبرت سنها إن لم يرغب بهن أبناء العشيرة .. فبعد زواج حازم من ابنتكم الغالية وقدرت لي الحياة إلى ذلك اليوم الذي يعود فيه من وادي السرحان سالما ظافرا بالأخبار سأفكر بإزالة هذا التقليد الأعمى والساذج .

انشرح صدر الوزير عقاب لكلام أبيه ، وسر لموافقته ، فقد كان يخشى تشدده وتزمته لهذا الأمر وسر أكثر لتفكيره بإنهاء هذه العادة التي تحرم الكثير من نساء القبيلة من الزواج ثانية وثالثة، وبعد أيام أسر الوزير للفارسحازم الغاية ، وبعد نظر وتفكير عميق وافق على هذه المهمة الدقيقة والخطيرة .. فخلع زي الفرسان ولبس لباس العامة والفقراء ، وخرج من المدينة متجها لوادي السرحان .. وبعد مسير ميسر كان يطرق وادي السرحان ، ويسكن في أحد الكهوف القريبة من مدينة ملك اللصوص الغضبان ، وبعد حين قبضوا عليه مختبئا في أحد الكهوف ، وهو في حالة سيئة ، فأخبرهم أنه قد قتل إنسانا في قريته ، وفر هاربا من أهل القتيل وبعد حبسه بضعة أيام ألحقوه بحلقة السلاح ليتدرب ومن ثم يصبح ابن جبل، فهم يسمون أنفسهم ابناء الجبل لحياتهم في جبل ضراب ، وما كاد يمضي عليه ثلاثة أشهر حتى أصبح من رجال الجبل ووثق به القوم ، وكان يحب ويسعى أن يسمع أخبار الغضبان الرجل العجوز سيد الوادي العظيم ، فعلم أن الغضبان أعمى البصر ، فقد ضعف بصره ولم يعد يرى الأشياء المادية ، وهو حبيس قصره بين أولاده الكثر وزوجاته وغلمانه وخاصته ، وعلم أن الذي يدير مملكة الجبل مساعده القديم أبو هند ؛ ولكنه ألعوبة بيد الفرسان الشباب من رجال الجبل ، ولكنه استطاع توحيد مملكة اللصوص في وادي السرحان والجبل ، ويساعده في ذلك سيد الفرسان ، ويسمونه بالأمير زوابع ، وابن الملك الغضبان كلب الليل وأخوه وعل الجبل ، وعلم حازم أن هؤلاء الثلاثة هم المرعبون في الجبل منذ سنوات .. وأن هناك تنافسا خفيا وحادا بينهم ، ويظهر ذلك بينهم بين الحين والآخر .. وعلم أنهم يعدون لغارة كبيرة على مدينة أبي كبشة ، فعجب حازم لهذا الاختيار ، فقال له أحد الرجال الذين قويت علاقته بهم : يقولون إن هناك حسابات قديمة بينهم .. فهم منذ شهور قد استولوا على جواد من جياد ملك بلاد يقال لها بلاد الرايات .

صعق حازم لسماع هذا الخبر ، وكاد أن يفتضح أمره لولا أنه تدارك نفسه في آخر لحظة وقال صائحا ومخفيا دهشته: الله .. الله .. الله !! .. أمعقول هذا يا سيدي البطل ؟!

فقال الرجل الكهل وقد رأى الدهشة والاستغراب على ابن الجبل الجديد : إيه والله ! .. أعرف

أن هذا يدهشك ، فسرقة ملك ليس كسرقة غني أو أمير .

فقال حازم : صدقت يا أخي .. سرقة ملك هذه قصة عجيبة! لابد أن تسمعني الحكاية بالتفصيل ، فقد شوقتني لهذه الشجاعة والجرأة .

فقال الرجل متحمسا ومعتقدا سذاجة وبساطة صاحبه : اعلم يا سعود الهنا.. أن الأمير زوابع فارس كبير !! لم ير مثله في وادي السرحان .. فكثيرا ما أرسله ملكنا الغضبان في مهمات صعبة بل طلبه بعض الملوك أصدقائنا ؛ ليساعدهم في قتل خصومهم ومغامراتهم .. وفي كل مرة يسير فيها يعود بطلا جديدا رغم أنه لم يبلغ الثلاثين سنة من العمر.. أنا أذكر الأيام الأولى له في جبلنا أتي به طفل صغير .. لقيه الغضبان فتكفله ، وصنع منه مجرما عنيدا شرسا ؛ كأنه ابن مجرمين متوغلين في الإجرام والسفك .

فتظاهر حازم بالسذاجة وقال : والله إن قصتك تفتح الشهية يا أبا السعد .. طفل صغير أصبح أميرا وفارسا مهابا رغم كثرة الأبطال الكبار في الجبل .

فقال أبو السعد مظهرا إعجابه البالغ بـزوابع : إي وربي ! إنه لفارس قوي مهيب! شاركت معه في عدة غارات ، فرأيت الشجاعة والإيثار وقوة القلب منه .. عندما تراه في المعركة تظن أنه الأسد قد فارق عرينه غضبا وزمجرة .. ولكنك عندما تعاشره تتمنى له الخير والسعادة والحياة في القصور بدلا من هذه الجبال والكهوف .. هذا هو الفارس الأمير زوابع .. فمنذ أتي به وترعرع هنا وشب أطلق عليه الغضبان لقب الأمير ، ومنذ صغره وهو يدفعه في كل الغارات والمعارك حتى صار البطل المرهوب والمحبوب .

فقال حازم : حدثني عنه فقد شوقتني لرؤيته والاجتماع به .

فقال أبو السعد بحماسه السابق : سوف تراه ..

كان حازم يستمع بإعجاب عن فارس الجبل زوابع ، وأبو السعد يتحدث عنه بحماس وإعجاب غريب ، ولما انتهى الكلام على شجاعة البطل زوابع قال وفي عينيه نظرة حزن : لكن الجبل ساكن على بركان هائل!! .. فأولاد الغضبان يحزبون الرجال سرا ، فكل واحد منهم

يجمع حوله الأعوان للاستيلاء على الملك .. ملك اللصوص والوادي .. والأمير زوابع طموح ويحب السيادة على اللصوص والجبل .. وقد غرس فيه الغضبان هذه الصفة ، وحدث من شهور خلت أن اشتد التنافس والصراع بين الثلاثة ، وأراد الغضبان الملك أن يحسم الصراع المخيف لرجال الجبل ، فاقترح عليهم أن الفارس الذي يأتي بفرس ملك بلاد الرايات المعروفة باسم ورد ، وهي من الخيل المشهورة بين الملوك والسراة ، يستحق أن يكون زعيم الجبل بلا منازع ، وهذه الحكاية لها حكاية قديمة جدا حدثت منذ ربع قرن .. المهم يا صاحبي سعود أن الملك اقترح على الأبطال الثلاثة التسابق على إحضار الفرس والسابق له الحق أن يصبح سيد اللصوص ، فوافق الفارس زوابع وكلب الليل على هذا التحدي ، ورفض وعل الجبل هذه الفكرة ، وعرض المبارزة حتى الموت ، فأبى الغضبان وأبو هند هذه المبارزة وحثا على سلب فرس الملك قيس ملك بلاد الرايات ، وتقاتل زوابع ووعل الجبل وتصادما ، وكاد يقتل ابن ملكنا الغضبان ، وخشي القوم أن يكبر القتال بين رجال الرجلين ، كل سيد في هذا الوادي له جماعة تعمل معه في قضاء المهمات المختلفة لسادة الجبل ، وتحيز الغضبان لولده وعل الجبل عندما رآه صريعا بين يدي الفارس .. فغضب الفارس ، فهو محسوب بأنه ولد للغضبان ، وإن لم يكن من صلبه ، فلما غضب زوابع ترك الجبل غاضبا ووعد الغضبان بفرس الملك قيس ؛ ليثبت له أنه سيد الجبل بغير منازع ، وانطلق لبلاد الرايات غاضبا ووحيدا ، ثم ألحق به الغضبان ثلاثة رجال ليردوه عن مهمته ، وأن الملك يرغب بمصالحته رغم معرفته بعناده ؛ ولكن فارسنا عنيد يا صاحبي سعود ! فسار إلى تلك البلاد وسطا على اصطبل الملك وأتى بالفرس ورد مما أدهش القوم .

وعاد حازم للتظاهر بالإعجاب والسذاجة معا فقال : والرجال الثلاثة الذين تبعوه ماذا فعلوا فقال أبو السعد : أخبر الفارس بأنهم قتلوا في إحدى الغابات .. ولما عاد بالفرس ورد أبى أن يهديها للغضبان ، وإنما أراد أن يثبت للجميع بأنه أحق رجل بوارثة الغضبان ، ثم هدأ الصراع فكلما مرض الغضبان استيقظ الصراع الكامن ، فنحن مقبلون على أيام عصيبة يا صاحبي ..

فقال حازم متخوفا: إنك تثير وتهيّج الخوف في نفسي .. أنا لولا قتلي لقريبي اللعين ما خرجت لهذه الجبال المخيفة .

قال أبو السعد : معك حق ! لولا ظروف كل شخص منا لما سكن هذا الجبل إنسان ..لا تخف يا سعود مع الأيام ستتعلم وتتعود على قسوة حياة الرجال والجبل ، فلي أكثر من خمسين سنة أحيا ها هنا .

كان حازم جاسوسا ذكيا وفطنا في الجبل ، وكان يفكر ويرغب بالتقرب من سيد الجبل القادم الأمير زوابع ، فلربما تمكن من أخذ الفرس ورد ورجع ظافرا بها للبلاد.. ولكنه يخشى هذا التقارب لما هو قادم من صراع قاتل على سيادة وملك الجبل صراع تلوح آثاره من تصرفات رجال الجبل وتحزبهم وتعصبهم ، فالغدر من شيم اللصوص ، والشجاعة قد لا تنفع مع الغدر القاتل ، فكان يتظاهر بالبلاهة والسذاجة ، وأنه قتل قريبه في لحظة ضعف ودفاع عن النفس ، واستقر في العمل بالزراعة وسقي الأشجار في مدينة اللصوص والمراقبة عن بعد

وسمع حازم بالغارة التي قادها زوابع لسرقة أموال الملك في بلاد أبي كبشة ، وتعجب لنجاح اللصوص وهؤلاء الأشرار بسرقة دار الخزانة وجلبهم عدد من صناديق الأموال ، فهمس لنفسه : إن زوابع هذا مجرم عتيد وشجاع ! لقد سرقوا الخزنة ولم يصب أحدهم بأذى ، وقد أخذ فرس الملك قيس بدون أن يكشف أمره .. لابد أنه صاحب عقل ذكي نشط .

وهذه الضربة الجديدة لاحظ حازم أنها رفعت أيضا من قوة زوابع عند الأسياد القدامى في الجبل ، حتى أن الغضبان اعترف بتفوق زوابع على كثير من الأسياد وكبار اللصوص ، وقد اقتربت السنة أن تنقضي للفارس حازم وهو يقبع بين هؤلاء الوحوش في نظره ، فحينئذ فكر بالعودة لبلاده وقد علم الكثير من أسرار الجبل ، وقد عجز لحتى الآن عن مشاهدة ورد الفرس المسروقة ليتأكد من ذلك ، فكيف بسرقتها منهم ؟! فهو يفكر بالهرب والنجاة ، ثم قص ما جمعه من أخبار على الوزير عقاب ، والتنعم بالزواج من ابنة الوزير ؛ ولكنه خشي من افتضاح أمر هربه ، وأن سقوطه بين أيديهم هارب يعني إنهاء حياته وموته المحقق، فهو يفكر بطريقة وحيلة

يخرج بها من الجبل سالما ومن غير أن يهتم لغيابه أحد ولكن قبل أن يغادر الجبل بحيلة ما علم أن أحد الملوك أصدقاء الغضبان ـ وعجب لصداقة الغضبان بالملوك والأمراء ـ قد أرسل رسولا لغضبان ملك اللصوص يطلب منه ألف مقاتل ومحارب للمشاركة في تأديب وزيره الثائر عليه ، وأنه وعده بالأموال الكثيرة وثروة الوزير المتمرد ورجاله ، فاجتمع رؤساء اللصوص الكبار ، وبعد تشاور دام يومين وافق مجلس اللصوص على انتخاب ألف فارس كما يزعمون ، وتقرر أن يقودهم وعل الجبل أميرا عليهم ، وانطلق وعل الجبل بالألف فارس نحو مملكة أرمان لمساعدة ملكها جعلان على وزيره الثائر شمعار ، وقد قويت شوكة الملك برجال الجبل الأشداء ، وحميت المعارك بين الطائفتين ؛ ولكن الوزير لم ينقصه الرجال والموالين له من قبيلته وأبناء الشعب الناقم على الملك الظالم .. فلم يتمكن الملك جعلان من القضاء على ثورة الوزير، بل شعر بقرب احتلال قصره عندما بدأت أسوار المدينة تضعف أمام الحصار وقوة فرسان الوزير ، فطلب من وعل الجبل أن يضع خطة لصد الوزير وفك الحصار عن أهم الأبواب لوصول الإمدادات الغذائية لأنصار الملك ؛ وليستطيع التجار والقوافل الدخول والخروج ، فوافق وعل الجبل ورسم خطة قتالية هجومية ، ودارت معركة سقط فيها وعل الجبل وأكثر رجاله صرعى لها ، فحمل وعل الجبل ينزف دما إلى قصر الملك ، وهناك ذكر وصيته ولفظ أنفاسه الأخيرة ، فلما وصلت أخبار هذه المعركة وهذه الهزيمة لرجال الجبل كثر الصراخ والعويل ، واجتمع رجال الجبل في مجلسهم للتفكير في رد الاعتبار لفرسانهم وقتلاهم والثأر لابن ملكهم ، فكان الغضبان يقول لولده كلب الليل وربيبه الأمير زوابع : ها أنتم ارتحتم من خصم عنيد لكم !!.. أثرت شهية وعل للحرب .. هذا ما تريده يا كلب الليل !

صاح كلب الليل مدافعا ورافضا الأتهام : يا ملك الزمان ! .. لم يكن وعل الجبل ينتظر أن أثيره وأهيجه ليندفع لمساعدة جعلان .. إنما رسالة ابنة جعلان هي التي حركته ، فأسرع لطلب القيادة فها هو الفارس زوابع قد طلب القيادة .. أليس كذلك أيها الرجال ؟!

دارت همهمة اعترف الرجال الكبار على أثرها على صدق هذه المعلومة ، فعاد كلب الليل

يصيح : نحن لا نرى العشق والهوى مهما في حياة رجال الجبل .. ولكن الفارس المغرور عندما كنا في ضيافة جعلان قبل سنوات التقى بالأميرة الأرملة ابنة جعلان ، فحدثها عن شجاعته وبسالته ومقامه الكبير في الجبل ، ورغبها بحياة الجبل ، وربما أصبح ملكا للجبل في يوم ما .. وأصبحا عاشقين .. فلما جاءت رسالة جعلان وخصته الأميرة برسالة ظن أنها فرصة مواتية للزواج منها ، فهذا السبب الحقيقي لإقدامه يا ملك الجبل وليس كلام مني أو من غيري .

هز الغضبان رأسه الضخم ، وكأنه يتذكر قصة الأميرة سُلمى وقال : قصة جديدة!!.. ألا يوجد نساء عندنا لنعشق بنات الملوك والأمراء ؟!.. هذا هو سبب سقوطه إذاً.. الثأر يا قوم الثأر ..!!

فقال زوابع على حين غرة من جدالهم : لماذا يا سادة لا نؤازر الوزير شمعار ما دام أن كفته هي الراجحة ؟!.. وأن الملك غير محبوب من رعيته .

فثار الغضبان وهاج وصاح : ويلك يا زوابع .. أتستهين بثأري؟!

فقال زوابع : أيها الملك ! نحن أرسلنا البطل وعل الجبل ليقاتل من أجل المال والثروة فلو أرسل إلينا الوزير العرض قبل الملك هل نرفض عرضه ؟!



كثر الهرج والصياح في مجلس رجال الجبل وصرفوا الاجتماع إلى لقاء آخر ، كان حازم يتابع هذه الأحداث من خلال عمله في بستان قصر الملك ملك اللصوص أو قل ملك وادي السرحان .

وقبل أن ينتهي الحداد والحزن على ابن الملك الأمير وعل الجبل انتخب رجاله ابنه البكر زعيما لهم ، ولما تمت مبايعته طلب من جده أن يسيره للثأر لروح أبيه.. فاجتمع مجلس الجبل ، وبعد نظر في القضية رفض الزعيم أبو هند هذا الطلب وقال : نخشى أن تتعرض للقتل فتكون المصيبة شديدة .. إن كان لابد من الثأر والقتال مع جعلان فالأحسن إرسال زعيم غيرك .

فتنطحت ابنة وعل الجبل لقيادة فرسان الجبل ، وكانت هذه الفتاة كغيرها من فتيات الجبل من

الفرسان والشجعان ، وكانوا يدربونهن لحماية الجبل أثناء الغارات والحملات ، فبعد جدال عقيم مع أبناء الميت وعل وافق الغضبان على إرسال حفيديه للثأر لوالدهما ، ولم يصغ لاعتراض عمهما كلب الليل ، ولا لاعتراض الزعيم أبي هند ، فتشكل جيش من ألف محارب ، وفيه من الفتيات المحاربات ، وساروا نحو بلاد الملك جعلان ، ولكن قبل انفصالهم عن وادي السرحان اعترضهم الأمير زوابع وحث الفتيات على عدم المسير للقتال خارج الجبل، وأن لا يغيرن سنن وطرق الجبل ، فرفضت الأميرة غزاله ابنة وعل الجبل ، وأظهرت عيانا الكره والبغض للفارس البطل .. فتحمل الأمير شتمها وسبها واحتقارها وكر عائدا للجبل وخلفه حراسه السبعة ، رغم موافقة الغضبان على مسير أولاد القتيل فقد كان على خوف وقلق شديدين عليهما، وكان يبكي من القهر والعجز عن الثأر لولده المقتول ، وكان في قرارة نفسه يتمنى أن يتحرك زوابع لهذه المهمة ، ولكن أسياد الجبل يريدون إبعاده عن هذه المهمة خشية حسد كلب الليل وخشية ارتفاع شعبيته أكثر في الجبل ، ولم تطل الأخبار فقد جاءت بشائر انهزام الملك جعلان أمام الثائرين بزعامة شمعار ، وقد تم تنصيبه ملكا على المدينة أرمان ، وعلم أهل الجبل بقتل الكثير من رجالهم ، وأسر الكثير منهم ، وعلى رأس الأسرى الأميران ابنا وعل الجبل، فاستشاط الغضبان جنونا وغضبا وقهرا ومن هول الصدمة سقط ميتا ، فتم إعلان الحداد على روحه وجسده ، وشيد له قبر في المكان الذي عينه قبل موته بسنوات .. وتقرر أن يكون الحزن عليه ثلاثة أشهر تسعين يوما ، وخلال هذه الشهور أرسل أبو هند وفدا لمفاوضة الملك الجديد شمعار للصفح والعفو عن رجال الجبل وعلى رأسهم الأميرين ، ولم تمض هذه الشهور الثلاثة حتى عفا الملك شمعار عن رجال الجبل فرجعوا بالخزي والعار ، وكل هذه المدة لم يتمكن الفارس حازم من مغادرة الجبل إلى أن كان يوم فقد طلب منه زعيم الزراع في قصر الغضبان أن يسير إلى مكان لإحضار بعد الأعشاب العلاجية بناء على توصية طبيب القصر، ففرح حازم لهذه المهمة التي لم يكن يحلم بها ، ومشى إلى المكان المشار إليه ، ولما اقترب منها سار إلى المخرج من وادي السرحان ، فتيسر له ذلك ولم يعترضه أي أحد من رجال العصابات ، فهو يتزيا بزيهم

فظنوه بريدا مكلفا بمهمة خارج وادي السرحان ، وبعد أيام كان يخرج من وادي السرحان سالما نحو بلاده ، ولما وصلها دهش كل معارفه من عودته ، وكانوا قد ظنوا أنه قتل في الصيد كما أشيع في البلدة ، واجتمع بالوزير عقاب الذي آيس من عودته وكان نادما على إرساله ، فأطلعه الفارس على كل شيء علمه في وادي السرحان ، فتعجب الوزير مما سمع وقال : لابد أنها أيام قاسية عليك يا حازم ! ولكنك عدت بأخبار طيبة ، هل رأيت الفرس ورد ؟

فقال حازم: العجب كل العجب يا سيدي الوزير ! إنني لم أتمكن من رؤيتها طول هذه المدة ، فهي ملك لفارسهم الشجاع زوابع ، وهو الذي سرقها من اصطبل الملك ، وهو فارس قوي ، وأكثر رجال الجبل يحبونه أو يرهبونه ، وقد حاولت أن أعرف أين يخفي الجواد ؟ فلم يتيسر لي ذلك ، وهناك الغلطة يا مولاي تكلف الإنسان حياته ، وأصعب شيء عندهم الخيانة ، فالقتل عندهم بعجلة ومن غير تدبر وترو، فكل الغارات التي تصيب المدن والبلاد فهي من رجالهم ، وهم الذين سرقوا خزنة الملك مرعي ابن الملك قيس ملك بلاد الأكباش

فقال الوزير : للحديث تتمة .. فسر لأهلك ، وأرح نفسك ، وانتبه لنفسك ، واحذر غدرهم سوف أتشاور مع الملك في أمرهم وفيما سمعت منك .

مشى عقاب لوالده وأخبره بكل ما نقله إليه حازم ، فهتف الوزير الشيخ : هذا ما توقعته أيها الوزير .. إذن لقد هلك الغضبان ملك الجبل ! .. إنه رجل مرعب ومخيف وفاتك لا يرحم يا ولدي !.. تكلم مع الملك قيس بذلك وسأفكر بالأمر المناسب .. اسمع لرأي الملك أولا .. فسوف يسر لهذه الأخبار رغم حزنه على جواده ، ثم أدخل عليه حازم يقص عليه حكايته في جبل ضراب ووادي السرحان .



جميلة وورد

ذهل الملك قيس وهو يسمع قصة رجال الجبل ، وتجدد حزنه لسرقة جواده ، وسر لموت الغضبان ، ولما انتهى الوزير من سرد القصة على مسامع الملك قال الملك : لابد أن هذا الفارس المسمى زوابع هو الذي التقى بالبنات في الغابة .. أتذكر لما حكم القاضي على الرجلين بالموت لقتلهما صاحبهما أو خصمهما ؟!.. رجلي الغابة .. يومذاك أتتني الأميرة جميلة ابنة الملكة سُلمى وحدثتني بقصة الفارس المطارد والرجال الثلاثة ، وأن البنات هن اللواتي قتلن الرجل اللص وجرحن الآخرين .

فهتف الوزير مصدقا: أجل أيها الملك أذكر ذلك! .. وحدثتني ابنة أخي صقر بذلك .. إذن لقد كان الفارس زوابع هو الذي قدم لسرقة الفرس ، وتخلى عن الرجال الجرحى .. ولكن للأسف لقد هلك الرجلان في السجن ! .. ولو بقيا على قيد الحياة لتأكدنا منهما وسمعنا منهم أخبار الجبل .. سيكون الفارس الشجاع حازم بين يديك يا مولاي ! ليحدثك بنفسه برحلته ومغامرته في جبل السرحان .

فرد الملك قائلا : لا بأس .. هيئوا حملة جبارة وقوية لغزو الجبل وتدمير مملكة اللصوص على أهلها مرة أخرى .. سوف يرون شدة بأسنا قاتلهم الله .

فقال الوزير : أمر مولانا الملك ؛ ولكن لديّ اقتراح إذا أحب مولانا سماعه .

فقال الملك : تكلم أيها الوزير!

فقال الوزير : نحن بالتأكيد وبعد مشيئة الله سبحانه سننتصر عليهم ؛ ولكن أخشى أن يهربوا كما فعلوا في المرة الماضية ، ولا نستطيع الاستمرار في مطاردتهم ؛ لتفرقهم وتشتتهم بين الممالك والمدن .. فأرى ـ يا مولاي الملك ـ أن نخاطبهم بالحسنى بأن يردوا ويعيدوا لنا الجواد .. وأموال الملك مرعي .

فقال الملك بعد تأمل : سأدرس ما تفوهت به أيها الوزير.. لو أنكم تزورون حضرة الأب الكبير وتسمع مشورته فهو وزير حكيم وبارع .

فرد الوزير : سأفعل أيها الملك الشجاع .

كان وقع رسالة الملك قيس على رجال الجبل كوقع السوط على جلد المجلود ، وتذكر الرجال القدامى غزو جيش ملك بلاد الرايات لجبلهم ، وتذكروا حرق غضبة الليل وتمزقهم وهربهم فأعاد الكبار القصة على مسامع الشباب والفرسان ، فاشتعل الغيظ في قلب زوابع وصاح قائلا بغروره المعهود : ومن هو قيس هذا ؟! .. ألهذه الدرجة تخشون جيشه؟!

فقال أبو هند مخاطبا زوابع : أيها البطل دعك من الـغرور..علينا أن نفكر بروية ، ونـعرف بماذا نرد على رسالته ؟! فنحن خبرنا الملك قيس وجيش بلاد الرايات .

فقال زوابع : ويلكم ! ألم أسرق وحدي جواده من اصطبله؟! .. أين جنده وحرسه ورجاله ؟!

فقال أحد الرجال القدامى : سرقة جواد ليست كما التعرض لغزو جيش مدرب وكثير الفرسان والرجال .. الشجاعة وحدها لا تكفي أيها الأمير.. ماذا حل بفرسانا عندما قاتلوا جيش شمعار أيها السادة ؟!

فقال الأمير غير مكترث لمَسمع من اعتراض : لماذا ننتظر أن يغزونا هو ؟! .. لماذا لا نغزوه نحن في عقر داره ؟!

فأجاب أبو هند قائلا : مملكته بعيدة عن جبلنا أولا ، وثانيا جنوده كثر أيها الشجاع .. فدعونا نفكر بروية وهدوء قبل أن نحسم الرد .. فالأمر صعب ، وأنا كان رأيي من البداية عدم التحرش بذاك الملك ، ولكنك يا زوابع أصررت على التحدي رغم معرفتك بالخطر الجسيم ، وأنت بنفسك أخبرتني عن شجاعة فتياتهم وقتلهن لرجالنا ، فكيف رجالهم ؟! ولكن الأمر المهم أيضا أن نعرف كيف عرفوا بأن الجواد عندنا ، وأننا سرقنا أموال بلاد أبي كبشة .. فهذا يدل على أنه كان بيننا جاسوس لهم .. وإن لم يخب ظني قد يكون ذلك البستاني الذي اختفى من الجبل فجأة وظننا أنه سقط في بعض المغارات العميقة وهلك ..

ودار الجدال حول البستاني سعود يريدون أن يتذكروا له موقفا يدل على تجسسه ، فلم يجدوا دليلا واحدا يؤكد شكهم ، ورجح بعضهم أنه سقط في أحد الحفر والآبار المخفية ، فحسم أبو

هند أمره قائلا : ربما .. والأيام ستظهر الحقيقة .. المهم عليكم أيها السادة بالتفكير بالرد المناسب على ملك تلك البلاد .. نجتمع غدا ليلا لنسمع المشورة ثم نتخذ القرار الحاسم .. انصرفوا .

وتفرق أمراء الجبل والسادة والزعماء نحو بيوتهم ومنازلهم على أمل اللقاء غدا .

عندما اجتمع رجال الجبل الكبار مرة ثانية كانت الآراء كثيرة ، منهم من يرى رفض طلب الملك قيس وزاد بمهاجمة وغزو بلاده .. ومنهم من اقترح قتله غيلة لإثارة الرعب في قومه ومنهم من رغب في السلامة بإعادة الفرس وأموال ولده مرعي ملك بلاد أبي كبشة ، وهناك من أشار بعدم الرد وإهمال الجواب .. فأبو هند من دعاة السلم وإعادة الفرس والمال ، وكان زوابع من دعاة غزو بلاد الرايات وإثارة الرعب فيها ، وكان الأمير كلب الليل ابن الغضبان من دعاة غض الطرف وعدم الرد على الملك والاستعداد للدفاع والقتال ضد أي غزو ، ولما لم يجتمعوا على قول صرح لهم زوابع بأمر مثير وخطير وعجيب ، فقد عرض عليهم خطف الملك قيس وإحضاره للجبل والتفاهم معه ، واستعد هو لتنفيذ هذا الاقتراح الخطير ، فبعد زوال البغتة عن الجميع قال أبو هند : قبل أن نوافق أو لا نوافق أيها الاخوة على ما تفوه به زوابع علينا أن نفكر برد مناسب على الملك قيس.

فصاح كلب الليل : فأفضل رأي رأيي .. عدم الرد وإهمال الرسالة .

فتم الاتفاق على ذلك ، فأحضر رسول الملك قيس وأخبروه أنهم سيتشاورون في الأمر ويرسلون رسالة للملك قيس بعد التدبير والتفكير ، فانصرف الرسول راشدا بعدما أمضى ثلاثة أيام في وادي السرحان ينتظر الجواب .

كان الأمير كلب الليل يحث أبا هند بالموافقة على اقتراح زوابع بل قال : أعرف أنكم ستقولون أن هذه فرصة للتخلص من منافسي على زعامة الجبل ؛ ولكني أقول على رؤوس الأشهاد أن الفارس الكبير أمير الفرسان زوابع ربيب والدي الغضبان إذا رجع سالما وأحضر لنا الملك قيس حيا إلى الجبل ، فهو الملك المطلق علينا أيها السادة الكرام .. أنا ورجالي سنكون تحت أمره وقيادته وأطوع له من بنانه ، ولا نعصي له أمرا ، أو نتمرد على قراراته .

وجم القوم لهذا العرض ، وأخذت أبصارهم تتطلع للأمير زوابع سيد الفرسان ، فحملق فيهم الفارس بعض الوقت ، ثم هتف قائلا بحماسه المعهود وغروره المعروف : أترضون كلام الأمير كلب الليل ؟! وينتهي الصراع بين فرساننا ، وتقبلون زعامتي لكم راضين إذا أحضرت أنا الملك قيس إلى هنا حيا اسيرا ، ولا تنازعونني الملك .. ملك الجبل ووادي السرحان .. ثم تدافعون معي حتى الموت عن الجبل إذا أصر فرسان بلاد الرايات على القتال ولا تولون الأدبار جرت همهمة ولغط كبير في القاعة التي يتشاورون فيها ، فقد كانت كلمات زوابع قاسية وخطيرة ومرعبة ، فعاد كلب الليل يتعهد بالولاء والثبات والرضا عن طيب خاطر واقتناع بحكم زوابع إذا نفذ وأتى بـقيس للجبل ، ولما سمع أمراء الجبل وقادته كلام كلب وكلام أبي هند وافقوا على هذه المغامرة الكبيرة ولم يقدروا خطورتها بالقدر المطلوب ، فقال زوابع : وأنا إن نجحت في مهمتي في جلب الملك إلى هذا الجبل ، وفرضنا عليه شروطنا السلمية ووافق عليها وتوجت سيدا لهذا الوادي سأكون عند حسن ظن الجميع ، وسترون مني كل خير وولاء ووفاء لهذا الجبل ولرجاله الصغار والكبار الذكور والإناث ، وسأعرض عليكم خطتي التي رسمتها من أجل خطف الملك قيس بن خصيب .

ولما اجتمع السادة مرة أخرى ، عرض عليهم ربيب الغضبان خطة خطف الملك قيس ، فعجب الأمراء ورجال الجبل لخطته الجسورة وتمنوا نجاحها ، وعلى أثر سماعها كتبوا رسالة للملك قيس يخبرونه فيها برد الجواد ورد ، وتقدمهم الرسول بأيام ، وبعده سار زوابع وعدد من فرسانه لتنفيذ الحيلة والمكيدة ، ومعهم الهدايا للملك قيس وأعوانه ، ومعهم كذلك الفرس ورد ابنة دموع .. وكان الملك قيس قد استقبل رسول الجبل ورحب به ، ودخل قلبه الفرح لقرب عودة الفرس المسروقة بعد كل هذه الشهور والأيام ، ولما اقترب زوابع من بلاد الرايات نشر رجاله حول مداخل ومخارج المدينة واختبأ هو وباقي الفرسان في أحد الوديان ، وسار ثلاثة رجال ومعهم الفرس ورد إلى قصر الملك مع ضحى النهار وإشراقة الشمس الأولى ، ولما دخل القوم القصر كان في استقبالهم الملك قيس بنفسه ووزيره عقاب وكثير من رجال الحاشية والأهل

والأصحاب ، فعودة ورد لها معزة ومحبة عظيمة في نفوس القوم ..فتسلم الملك الجواد بشوق وحنان وعانقه وأخذ يداعبه ويتفقده ويذرف الدمع على عودته بعدما يئس من حياته ، وأخبره الرجال الثلاثة بأنهم سوف يردون الأموال التي سرقوها من مملكة أبي كبشة ، ثم ودعوه وانصرفوا وهو يحذرهم من التعدي على بلاده وبلاد ولده مرعي ، فوعدوه خيرا وغادروا المدينة وكان القوم سعيدين بعودة الجواد وظل الملك ومن معه يداعبون الفرس ، وقد لاحظوا توتره واحمرار عينيه الشديد ونسبوا ذلك لتعب الطريق وغربته ، وإن أحسوا بأنه غير تعب .. وفجأة قالت ابنة الملك جميلة : يا أبتي دعني أركبه وأدور به في ميدان القصر ، فهو صديقي العزيز .

وقد اقتربت منه وتحسست رأسه وعنقه وساقه ووضعت رجلها في الركاب ثم امتطه ، فأظهر الجواد الفرح ، فأمسكت بالمقود ودارت به عدة دورات في ساحة القصر سعيدة به.. ثم اندفعت به فجأة خارج القصر ، وانطلق بها الجواد مسرعا في نفس الدرب الذي أتى منه فصاح أحد رجال الملك: كأن الجواد قد هاج .. أدركوا الأميرة !

وقد أحست الأميرة أن الجواد الذي اعتلت متنه غير طبيعي الحركة ، فسايرته في الاندفاع ، وإن حاولت أن تلجمه ، فأصر على الانطلاق فسايرت نفسها معه .. فإذا هو يخرج من المدينة نحو الصحراء والجبال ، فكان يسير بقوة وسرعة عجيبة ، وشاهدها رجال زوابع الذين أسرعوا إلى زوابع في الوادي المختبئي فيه ، فانطلق هو ومن معه من الرجال خلف الجواد الهائج والثائر ، وكانت ورد أسرع من جيادهم ، وقد سبقتهم الأميرة بمراحل ، وظل الجواد يركض في الصحراء حتى تعبت الأميرة فسقطت عنه في أحد الحفر الرملية ، وظل الجواد منطلقا حتى هبط الليل فاصطدم بصخرة كبيرة فخر ميتا ، ولما أدركه زوابع ورجاله وجدوه ميتا ، ولم يكن عنده راكبه ، فانتظروا حتى الفجر وبحثوا عن الراكب ، فلم يجدوا أثرا للملك ، فهم كانوا يعتقدون أن الملك يركبه ، فقد أطعموا الجواد عشبة مهيجة له على أمل أن يركبه الملك بعد كل هذه الحنين فينطلق به الجواد خارج المدينة دون حرسه ، فيدركونه فيأخذونه أسيرا ، ولما نقل لهم عيونهم انطلاق الجواد كما دبروا ومكروا سروا لذلك ، وانطلقوا خلف الجواد الثائر والمتمرد ؛ ولكنه

سبقهم بساعات ، فلما أدركوه لم يجدوا عنده أحدا ، فأدركوا أن طلبتهم قد سقط في الطريق فعادوا القهقرى يبحثون عنه ، وبينما هما يسيرون أحسوا بفرسان الملك يتدافعون تترى تترى ، فتواروا عن أعينهم ، ولما ابتعد فرسان الملك تابعوا البحث عن الملك .. ووصل رجال الملك إلى حيث الجواد الصريع ، ولم يجدوا الأميرة عنده ، ووجدوا حوله آثار خيول وأقدام رجال ، ولما اقترب الليل قفلوا عائدين لبلادهم ، وقد شملهم وغمرهم الحزن والأسف والبكاء على الأميرة وعلى الجواد .



أما الأميرة جميلة بنت قيس عندما سقطت عن متن الجواد الهائج، وقد فقدت التوازن وأنهكها التعب المفاجيء ، فارتطمت بالأرض ففقدت الوعي على الفور ، ومن حسن حظها أنها لم تصرع من شدة الضربة ، وكان وقوعها العنيف على أرض رملية ، ولم تكن أرض صلبة وإلا قتلتها .. فبعد أن استيقظت وجدت نفسها في خيمة صغيرة ، فأخذت تتلفت يمينا وشمالا وشاهدت امرأة قريبة منها فهمست بضعف واستغراب : أين أنا ؟!

فقالت المرأة بفرح : حمدا لله على سلامتك أيتها الفتاة الشابة.. لقد وجدناك في الصحراء مطروحة في حفرة ومغمى عليك،وقد نزفت بعض الدماء من رأسك وفمك .

عادت جميلة تتذكر ما حدث ثم قالت : واه .. كيف أتيت إلى هنا ؟!

فقالت المرأة : ألم أقل لك أننا وجدناك في الصحراء ؟! .. أنا وزوجي كنا نحتطب فوجدناك فحملناك على حمارنا وأتينا بك إلى خيمتنا في هذه الصحراء الكبيرة .

فأغمضت جميلة عينيها ، وأخذت تتذكر ثانية ما جرى لها ، ركبت الفرس ورد ، ودارت بها عدة دورات في ساحة القصر ، ثم اندفع الجواد بها إلى خارج القصر ، فجارته في غضبه ، ثم انطلق مسرعا نحو الصحراء وهو يركض بقوة وسرعة.. ثم رأت نفسها تطير عن ظهره وتسقط

على الأرض ، فقالت : يا أمة الله .. ألم تكن بجواري فرس عندما التقيتم بي ؟!

فقال المرأة الصحراوية : لا يا ابنتي .. كنت وحيدة ، وقد ظننا للوهلة الأولى أن قوما قتلوك وألقوك في تلك الحفرة ، ولما تبين لنا أنك حية جئنا بك إلى هنا ، فأنت في خيمة خالتك أم النهار واحمدي الله أن قدر لنا رؤيتك وإلا مت في تلك الحفرة أو أكلتك السباع والذئاب والضباع .

فتمتمت الأميرة بالحمد والثناء على الله ، ثم راحت في نوم جديد .

حكاية عبسان

كان الملك وحاشيته في وجوم شديد وهلع كبير ، فلما عاد الرجال أخبروا الملك بموت ورد واختفاء الأميرة ، وأنهم وجدوا حول الفرس الميتة آثار أقدام بشرية وحيوانية ؛ ولكنهم لم يجدوا الأميرة ولا آثار أقدامها .

فهبط الملك على الأرض تضعضعا ووجعا وترك عرشه وقال : لم تجدوا آثارا لها ؟!

فرد أحدهم : بحثنا وفتشنا .. لا أثر لثياب ولا أقدام .

فقال الوزير عقاب : إنها مكيدة كبيرة من رجال الجبل يا مولاي ! .. والله أعلم إنهم كانوا يقصدونك أنت أيها الملك بهذا المكر الرهيب !

فأكد عدد من رجاله هذا الاحتمال الغادر ، فقال بحزن : وماذا يريدون مني ؟!

فقال الوزير : حياتك أيها الملك !

فقال الملك مهددا : حسنا يا زوابع ويا كلب الجبل أو كلب الليل ! حسنا يا أبا هند الأيام بيننا فليخرج رجالنا بكثرة للبحث عن جسد الأميرة ؛ ولتذهب طائفة لدفن الجواد الهالك وتتبع الآثار ، والويل لرجال الجبل مني .

وبعد تفكير ونظر تأكد للملك أنها حيلة من رجال الجبل ، وأن حياة الملك كانت في خطر ، فلو ركب هو الجواد الهائج لحصل له أمر سيئ ؛ ولكن لم يقدر له الضرر بهذه الحادثة ، ولكن الأميرة ابنته ، فكانت المصيبة كبيرة على الملك والدولة .. فمحاولة الغدر بالملك جريمة ، وهذا أمر خطير ، وفقد جميلة وورد كل هذا من الكوارث ، ولما رجع الباحثون من غير جميلة أقسم قيس أن يدمر الجبل على ما فيه ، وأن يطاردهم ولو لآخر الدنيا ، فأمر قائد الجيش بأن يعد جيشا لجبا لهذه المهمة ، وصمم أن يهلك كل من يجده في جبل ووادي السرحان ، وأن يثأر لابنته وجواده العزيز .

وقد علم رجال الجبل بفشل محاولة خطف الملك قيس، وأن ابنته هي التي ركبت الجواد ، وأنها اختفت ولم يعثروا عليها في الوديان والصحراء ، ودب الخوف في رجال الجبل ، ووصلهم قسم

الملك قيس ، وأخذوا يتعاتبون ويتلاومون ويتشاتمون ويتشاجرون ويشمتون ، فصاح كلب الليل : ويحكم كلكم وافقتم على خطة زوابع ولكن مشيئة الله غلبت مشيئتنا .. وركبت الأميرة الجواد ؛ ولكن أين سقطت ؟ أين ذهبت جثتها ؟ لو وجدناها لاستطعنا أن نساوم الملك عليها ونمنعه من الوصول لبلادنا وجبلنا .. فقد سمعت أنه أرسل للملوك من حولنا للتحالف معه ضدنا ، فهو يريد إبادة الجبل وساكنيه .

فران الصمت على الجميع فقال أبو هند: وما عسانا فاعلين أيها القوم ؟! .. فقد حكمنا على أنفسنا بالهلاك .. فهل نقاتل حتى الموت ؟! أم عندكم رجاء وحل ؟

فقال زوابع وكله ألم وضيق : كانت خطة قوية وجريئة ؛ ولكن كما قال أخي كلب الجبل كما يحب أن يسميه رجاله وأعوانه .. القضاء لم يحكم على الملك أن يركب على الجواد ، كان الأمل أن تدفعه اللهفة والاشتياق بعد كل هذه الشهور والأيام من الفراق أن يعلو ظهر الجواد لهفة وشوقا فيحدث ما حدث ؛ ولكن تلك اللعينة ركبت قبل والدها ، ورغم مطاردتنا للجواد الهائج مما أكل وأطعم ، ولكنه كان سريعا يسابق الريح العاصف فسبقنا بمراحل ، فهذا ليس بأيدينا فلا داعي للولولة كما تفعل النساء والبنات ، ولا ينفع البكاء اليوم فهي حرب مفروضة علينا من قبل أن نضع هذه الحيلة والمكيدة ، وأنا ورجالي مستعدون للقتال حتى آخر رجل وآخر نفس ، وسندافع عن مملكتنا بكل قوة وصلابة وعناد

فقال أحد الزعماء مبينا بعض الحقائق : نحن لم ندافع يوما عن هذا الجبل أمام أي جيش غزانا نحن دائما نكر ونفر ونغزو ونساعد ، فنحن لسنا العدد الكبير الذي يستطيع الدفاع والصمود أمام الفرسان الكثر والغزاة ، نحن قوم غارات وغدر ، فلذلك قررت أنا وأتباعي بعد تشاور معهم بالهرب والانسحاب ، فمواجهة جيش الرايات هو انتحار وجبن .

فضج القوم لهذه الإعلان الصريح ، وعلا الصراخ والشتم من جديد حتى عاد كلب الليل يقول : يا سادة .. كفى كفى .. فالذي قاله صاحبنا كلام مقبول .. فنحن أهل غارة واختباء .. ونحن منذ موت والدي الغضبان لم نستطع الاتفاق على ملك لهذا الجبل ، وأنا سأطلب مثل صاحبي

فأطلب من رجالي وأتباعي الخروج من الجبل قبل أن يتحالف الملك قيس مع من حولنا من الملوك والأمراء ، وينقضوا علينا انقضاض السبع على ضحيته ، وداعا أيها الجبل ! وداعا أيها الرفاق! ومن شاء منكم البقاء فليمت وليدافع عن هذه الكهوف والحجارة .

فصاح زوابع بغضب : ويلكم كلكم جبناء ! .. جبناء ! أتهربون مثل القطط ؟! وقد كنتم تدعون الشجاعة وتطمعون بالملك .

فصاح كلب الليل : لا ملك بعد اليوم ، اقذف واشتم كما تشاء ، ودعنا نسمع أخبارك يا ملك الجبل .

وخرج كلب الليل ساخرا هازئا من الشجعان ، والرجل الزعيم الآخر خلفه ، ودب الذعر والرعب في الجبل قبل أن تقبل جيوش بلاد الرايات ، ونتركهم يهربون ويتفرقون ، ونعود للأميرة جميلة في خيمة أم النهار .. علمت الأميرة أن ساقها مكسورة ومجبرة ، وكانت تحس وتشعر بألم عميق ، وقد أدركت بذكائها المشهود أنها كانت ضحية مكيدة كانت مدبرة ضد والدها من رجال الجبل ، ولابد أنهم أطعموا الجواد مادة حادة مهيجة.. فحمدت الله أنها كانت هي الضحية بدلا من والدها الملك .. ولم تذكر لأم النهار اسمها الحقيقي فسمت نفسها الغالية وأنها كانت تركب جوادا فجمح بها فطرحها أرضا وهرب ، وصدقت أم النهار وزوجها قصة الفتاة ، واهتما برعايتها والاعتناء ببدنها ، ولم يكد يمضي عليها الشهر حتى ملت الحياة ، وتمنت الهلاك .. فساقها ما زالت تؤلمها ، وأحست أنها مقطوعة عن الدنيا ، وعجبت لحياة هؤلاء في هذه البادية الخالية من الإنس والجن ، ولم تسمع صاحبتها تحدثها يوما عن حياتها الماضية وسبب نزولها هذا المكان المهجور ، ولم تحاول إشباع فضول جميلة بقصص الماضي .. فأدركت الأميرة أن لهذين الشخصين حكاية غامضة وكبيرة ، وقد فشلت كل محاولة لسماعها ، وتواسي نفسها قائلة:وأنا لي حكاية لا أستطيع مصارحتهم بها الآن وأنا ضعيفة..يا الله !! لليوم لم يصل رجال أبي إلى هذه الخيمة القديمة !

وتأخذ الأميرة بالبكاء والابتهال إلى الله أن ييسر أمر عودتها لديارها ، فهذا ما حدث مع

أميرتنا بعد انتقالها لخيمة أم النهار .. نوم أكل وتأمل وبكاء وخوف .



وتقدم الأمير صقر بجيش جرار نحو جبل السرحان للقضاء على كل اللصوص والمجرمين وأسر نسائهم وأطفالهم والاستيلاء على أموالهم وخيولهم ، وبعد مسير بطيء دخل الجيش وادي السرحان ، ولم يلتقوا برجل واحد ، فظن صقر والفرسان أن هناك مكيدة ، فشددوا الحراسات في الليل وإشعال النيران ، وبعد أيام وصلوا إلى جبل الرملي حيث مملكة الغضبان وقصره ، فوجدوه خاليا والقرية خالية خاوية على عروشها ، فتعجب القوم لهربهم العاجل ، وأخذهم أموالهم ، فقرر الأمير صقر الاستمرار في مطاردتهم حسب رغبة الملك ، وأرسل خلفهم الطلائع ، وبعد مسير دام شهر علم أنهم لجئوا إلى أحد الملوك الكبار ودخلوا في حمايته ، فأمر الجيش بالتريث ، وأرسل خطابا للملك قيس وأخيه الوزير يطلعهما على جلية الأمر .

فلما تلقى الملك قيس خطاب قائد الحملة العسكرية الأمير صقر بن غراب جمع مجلس الملك وتشاوروا في الأمر ، فاقترح القاضي ابن عدون مخاطبة الملك بهراما في شأنهم وتعديهم على بلادنا وعبادنا .. وقال : لابد أن هؤلاء اللصوص ورجال الجبل قد بذلوا له الأموال حتى يقتنع بحمايتهم ، ونحن بالتأكيد لن ندفع له أموالا ليسلمهم لنا .

وأكد أكثر السامعين أفكار ابن عدون ، فأصدر الملك لكاتبه أن يكتب رسالة يشرح للملك بهراما قصة سرقة الجواد والمكيدة التي دبروها ليهلكوا بها الملك قيس.. وأرسل رسالة أخرى للأمير صقر يأمره بالمكث في وادي السرحان ، وأمر بإرسال المزيد من الإمداد لهم من الطعام والأعلاف ، واقترح أحد الفرسان على الملك قيس إنشاء قلعة قوية في وادي السرحان ، ويمدها بالميرة والفرسان إلى حين من الأيام حتى لا يفكر اللصوص بالعودة لجبل السرحان ، فأعجب الملك قيس بهذه الفكرة وناقشها مع وزيره عقاب فقال : نبني قلعة حصينة على قمة جبل السرحان ، ونجعل فيها المخازن الكبيرة ، ونسير لها الماء الدائم ، ونجعل فيها حامية من

ألف فارس ، وكل بضعة أشهر ثلاث أو ست يتبدلون ويعود القائمون هناك للديار ، وهذا أيضا قد يغنينا عن الصراع مع الملك بهراما إذا رفض عرضنا وصداقتنا ، وأظنه سيرفض ، وأهم أمر أن ننظم أمر البريد بين هذه القلعة وبلادنا ، فمسيرة عشرة أيام ليست بالأمر اليسير ؛ ولكن بالصبر وطول الأناة نمنع المطاريد والمجرمين من الاستقرار في الجبل والعودة إليه ، ويمكن أيضا إنشاء حامية صغيرة أخرى بين القلعة وبلادنا للإمداد بالميرة والسلاح والجند عند الحاجة العاجلة أيها الوزير الفطن ، فكر ورتب هذه الأفكار واعمل على تنفيذها .

فأبدى الوزير تفهمه لمقاصد الملك قيس ، واجتمع مع فرسان وقادة الجند والتقى بمهرة البنائين في بلاد الرايات ، وبدأ الإعداد لإنشاء هذه القلعة المحصنة في جبل ووادي السرحان ، وقد جاءت الأخبار برفض الملك بهراما التعاون مع الملك قيس للقضاء على رجال الجبل بل هدد وتوعد من يتطاول عليهم ، فأمر الملك قيس قائد الحملة الأمير صقر بالمكث في جبل السرحان عدة أشهر حتى يرسل فريقا غيرهم من الفرسان ، وأعلمه بموضوع إقامة القلعة، وبدأت الإمدادات والعمال المهرة يتحركون أفواجا أفواجا إلى وادي السرحان ، وقد تم اختيار الجبل المناسب لبناء القلعة الكبيرة على متنه ، فبعضهم قام بتشييد القصر والمنازل ، وآخرون ببناء الأسوار العالية والأبراج ، ونتركهم قليلا ونعود للأميرة جميلة بعض اللحظات والأوقات ، بعد حين تحسنت ساق الأميرة ، وأصبحت قادرة على الحركة والقيام والقعود والابتعاد عن الخيمة بدون إرهاق ومشقة كبيرة ، وفرح أبو النهار وأم النهار بهذه الصبية الحسناء ، وجعلوا من أنفسهم لها أبا وأما ، وهي رحبت بذلك ولم تحاول كشف حقيقة نسبها لهم ، وبينما هي تقف يوما على تلة قريبة من الخيمة تنتظر عودة والديها من المحطاب وصيد الأرانب والطيور ؛ فإذا بها تلمح خيالا شخصا على دابة ، فتعجبت من وجوده في مثل هذه الصحراء القاحلة ، وتعجبت أكثر عندما شاهدته يتقدم نحو الخيمة كأنه يعرف المكان ، فبعد حين وصل إليها ، فتعجب هو الآخر من رؤيتها في هذا المكان ، فنزل عن الجمل بعدما أناخه وقال : أين أم النهار وزوجها ؟؟ بل من أنت ؟!

فقالت بابتسامة صغيرة : ابنتهما !

فضحك الرجل وقال : ابنتهما من أين جاءوا بهذه الابنة ؟!

فقالت : أتعرفهما يا هذا ؟!

فضحك من جديد وقال : كيف لا أعرفهما أيتها الفتاة ؟! ولماذا أتيت إلى هنا ؟! فأنا أخ لأم النهار أيتها الفتاة الجميلة !

فهتفت الأميرة بفرح : أخوها !! لقد خيل لي أن لا أحد لهما في هذه الدنيا فمرحبا بك .

وتقدما نحو الخيمة فألقت إليه وسادة وقدمت له الماء وقالت : يا أخا العرب من أين أتيت ؟

فقال : من بلاد الله الواسعة .. أخبريني أنت من أنت ؟ وما الذي أتى بك إلى هذا المكان المجهول في العالم ؟!

فقالت باسمة : عندما تعود أمي ستخبرك .

فقال بضيق : أمك ! من أمك ؟!

فقالت : أم النهار .

فقال وهو يهز رأسه ومنكبيه : سنرى كيف أتت بك هذه الأم ؟!.. أين ذهبا ؟

فقالت باسمة : إلى الصيد وجمع الحطب .

فقال بضيق: حسنا؛ ولكني لاحظت أنك تعرجين يا أمة الله..ولم تذكري لي اسمك ؟!

فقالت : اسمي الغالية ولعرجتي قصة ستذكرها لك أختك أم النهار .

وأحبتجميلةأن تستدرج الرجل في الكلام وتعرف منه أنباء عن صاحبي الخيمة، ففكرت قليلا وقالت : هل أتيت من أرض بعيدة ؟

فقال الرجل : لي يومان أمشي على ظهر هذا الجمل – سامحها الله أختي – لقد رضيت بالحياة في آخر الصحراء وآخر الدنيا ، ولولا محبتي لها وطاعتي لوالدتي ما زرتها قط .

فقالت الأميرة : عفاك الله وأحسن الله إليك.. فالإحسان للأخت من أعمال الخير العظيمة عند الله .. وفعلا الحياة في هذه الصحراء القاحلة موحشة ومخيفة ..لا أدري لماذا رضي والديّ بالحياة

هنا ؟!

فقال الرجل ضاحكا : والداك !..إيه يا غالية ! أتصرين على أنهم والداك ؟

فقالت باسمة : أصر على ذلك وبقوة..لقد أنقذا حياتي يا رجل من الهلاك المحقق ، كدت أن أموت لولا عثورهما عليّ .. ولكن كيف طابت لهما الحياة في هذه الصحراء المخيفة ..؟!

فقال وهو يفكر : القدر يا ابنة أختي .. سأقول لك ابنة أختي ما دمت رضيت بها أما .. قاتل الله الهوى يا غالية !.. الهوى والعشق سبب رضا أختي بسكنى هذه الصحراء الجرداء .. ولا أظن أن والديك قصوا عليك سبب حياتهم هنا .. فهم لا يستطيعون ذلك .

فقالت بدهاء : أهو سر ؟!

فقال مفكرا : سر !!.. أكيد هو بالنسبة لهما سر ..لا أدري !.. على كلٍ حاولي أن تسمعيه من أبي النهار .

فقالت : لا أظن أن أبا النهار سيحدثني بشيء ، فلي أشهر أحيا بينهم ، وأشرب وآكل وأنام ، ولم أسمعهما يتحدثان عن حياتها الخاصة ؛ ولكني أدركت أن بينهما حبا عميقا وغراما كبيرا ..

فتنهد الرجل بعمق وقال : لقد حارب الدنيا عبسان ليتزوج من أختي .. كان يحبها ويعشقها من أيام الصبا ، ولما عرفنا ذلك غضبنا ، ووقفنا أمام هذا الحب العاصف ، واخترنا لها زوجا من أقاربنا ، ولكن قام عبسان اللعين يوم العرس بقتله..واختفى ، وحاولنا بعد حين تزويجها من شخص آخر فصنع به مثل الأول ، واختفى عبسان ثانية .. وابتعد الرجال عن الزواج من أختنا ثم علمنا بانضمام عبسان لرجال جبل السرحان ووادي السرحان مكان يأوي إليه لصوص الدنيا ، وأصبح من كبار المجرمين والقتلة ، وكان بين الحين والآخر يرسل رسالة يهددنا من تزويج أختنا، وبعد موت والدنا ، ولما رأينا تصميم ليمونة على الزواج من ذاك المجرم اللص الفتاك وافقنا ، واستسلمنا لرغبته ورغبتها ، وسمح له رجال الجبل بالزواج من محبوبته .. فأتى البلده ومعه رجال منهم ، وتم الزفاف قبل حضورهم ، فلما حضروا أخذوا العروس وانصرفوا للجبل أو لإحدى القرى .

فهمهمت جميلة : إيه إنها قصة جميلة !! ..أكمل يا سيدي .

فقال وقد عادت به الذكريات القديمة: وكانت كل سنة تأتي إلينا فتمكث بضعة أيام ، ثم تعود لبعلها ؛ ولكن قبل ما يزيد عن عشر سنوات أتت إلينا هي وزوجها ، وأخبرتنا أنها ستقطن الصحراء وتهجر الجبل ، وأنها لن تزور المدينة بعد هذه المرة .. ورافقتهم إلى هذا المكان يا غالية ولليوم لم أعرف سر بقائهما هنا وتركهم رجال الجبل ، وكذلك تركهم سكنى المدينة ، وإذا عندك زاد فقدميه لي فإني أحسست بالجوع ، وأنا أزورهم كل سنة مرة أو مرتين أطمئن على أختي وأحقق رغبة أمي .. فهذا بعض سر زواج أختي من عبسان يا غالية .

فنهضت الغالية وأحضرت الخبز وبعض اللبن للضيف.

وأخذ الرجل يأكل ويحاول معرفة قصة الغالية فترد عليه : ستحدثك أمي بالقصة اصبر.. اصبر أيها الرجل الطيب .

وبينما هم على ذلك الانسجام أقبلت أم النهار وزوجها عبسان ، وجرى العناق وأخذت ليمونة تسأل عن الأم والاخوة والأخوات ، والرجل عمران يخبرها ويطمئنها ، ثم تحول الحديث بين عمران وعبسان ، ثم نهض عبسان لشواء الصيد من أرانب البر ، وعلى رائحة الشواء سمع عمران قصة الغالية ، وأنها فتاة من بلاد الرايات كانت تتمرن على جواد جديد ، فجمح بها وهرب بها إلى الصحراء وطرحها واختفى حتى وجدها عبسان وليمونة ، وقاما بمداواتها والعناية بها حتى تماثلت للشفاء وقنعت بالحياة الهادئة معهما .

رجال الجبل

ترك كلب الليل واخوته وأولاد اخوته الجبل على أثر فشل خطف ملك بلاد الرايات ، وبعد مسير طويل تشاور كلب الليل ومن لحق به فاتفقوا على اللجوء لدى الملك بهراما، وهو صديق للغضبان ، وكان ذلك الملك يستعين به للفتك بخصومه ، فبينهم معرفة قديمة ، فساروا إليه على رأسهم غزالة ابنة وعل الجبل ـ المقتول في معارك الملك جعلان ووزيره شمعار ـ لطلب الحماية من مطاردة الملك قيس وتحالفه مع الملوك عليهم ، وكان بهراما شابا لم يبلغ الأربعين بعد

وكان يعشق النساء والجميلات ويحب الفواحش والموبقات ، فمن أول نظرة ألقاها على غزالة وقع في هواها ، وقبل أن تتكلم أدركت الصبية ذلك فاستغلت ذلك على الفور ، فأظهرت له ضعفهم ، وأنهم مطلوبون ومطاردون ، وأنهم بحاجة لحمايته ، ولبعد مملكته عن وادي السرحان فلم يحدث أن سطى هؤلاء على بلاده عدا صداقته للغضبان ، ومن حسن حظهم أن قوافل بلاد بهراما أيضا لا تمر قرب وادي السرحان وجبل السرحان ، فلم يحدث بينهم احتكاك عدائي ، فقبل الملك حمايتهم والدفاع عنهم ، وسيسمح لهم بالنزول في أطراف بلاده إذا وافقت ورضيت غزالة بالزواج منه ، فلما تشاورت مع اخوتها أولاد وعل الجبل وعمها كلب الليل قالوا : الأمر لك .. إن وافقت فنحن موافقون .

ولما اجتمعت بالملك مرة أخرى أبدت موافقتها على شرط أن لا يتزوج عليها ، ولا يبقي امرأة عنده غيرها ، وإذا تزوج من امرأة غيرها فيلزمه طلاقها ، فلما وافق بهراما المهووس بالنساء والصبايا على شروطها حصل النكاح ، وشهده الشهود ، وهجر نساءه الأخريات ، واحتفل الملك بزواجه من حفيدة الغضبان ، وأنزلها قصرا من قصوره الكثيرة ، ونزل قومها في منازل وخيم في طرف المدينة ، ووعدهم بالحماية وحذرهم من الغدر والسرقة في بلاده .

فلما أتته رسالة الملك قيس سخر منها ومزقها، ولم يكترث بها ، وغرق بغرامه وعشقه.. وأما زوابع فلما رأى تفرق رجال الجبل ولم يبق معه وحوله إلا رجاله ، وعددهم ما يقارب الثلاثمائة سوى نسائهم وأطفالهم فشعر بالضعف والهوان ، فهمس لنفسه : كيف كنت أحلم بأن أجعل هذا الجبل مملكة كبيرة ؟ ! وأن ندع اللصوصية والنهب وقطع الطرق والتعرض للقوافل والتجار .. ولكني فشلت في الوصول للملك .. سأتبع أبا هند فهو خير من كلب الليل اللعين ولما لحق بأبي هند وجماعته ، طلب منه أبو هند الابتعاد عنه ؛ لأنه هو طلبة الملك قيس فصرخ فيه من أعماق فؤاده : يا جبناء !.. قيس لا يعلم أنني أنا الذي دبرت المكيدة !

فقال أبو هند: هذا لا يهم .. ابتعد عنا .

فهام زوابع ورجاله على وجوههم بين الوديان والجبال والصحراء حتى ابتعدوا كثيرا عن وادي

السرحان .. وكان يقول لأحد رجاله المسمى ريحان : أترى يا ريحان ما حل بنا ؟.. إنهم جبناء ضغفاء.. لا أدري لما يخشانا الناس ؟!

فرد ريحان قائلا : نحن قساة على الضعفاء والبسطاء ! وعندما نصل للسادة والأكابر يظهر تمزقنا وضعفنا وجبننا .. فلننزل هذه الغابة ونأوي إليها ، فلا أظن أن فرسان الرايات يصلون إلى هنا لنا أكثر من عشرة أيام نقطع القفار والبوادي والوديان.

فتنهد زوابع الغاضب الناقم وقال : إنني أتمزق من الداخل يا ريحان ..إنني أكاد أن أتفجر من الغيظ .. زوابع المخيف يهرب كما يهرب الفأر من القط أو الثعلب الماكر من الكلب الصغير .. أين الشجاعة ؟! لعنة الله عليك يا غضبان .. قتلتني حيا وميتا .. اللعين كان يقول لي : أنت نقمتي .. لقد انتقمت بك من أناس.. فحرمتك من أمك وأبيك وجعلتك مجرما ذا قلب حجري مات اللعين ولم يذكر لي اسم أمي .. أخبرني اللعين أنه خطفني لينتقم من ضحاياه .. لا أدري يا ريحان لماذا أفكر بأمي الآن ؟ !.. هل اقترب الموت ؟ أم اللقاء بهذه الأم المفجوعة ؟ ..آه .. اللعين لم يخبرني ماذا صنعت له أمي ، وهو المجرم العتيد لينتقم منها ؟ إنني نقمة من نقمات الغضبان فهلك اللعين وتركني ضائعا تائها في هذه الوديان والجبال والغابات كان أولاده الجبناء يكرهونني بشدة ، ولولا أنه لا يريد قتلي لقتلونني قبل أن أشب ، ولكني شببت وركبت الخيل فأصبحت وحشا فارسا ماهرا رغم أنفهم .

فقال ريحان بذهول واضح : ألم تكن تحب الملك الغضبان ؟!

هاج زوابع ورد بعنف وحقد : لا .. لا .. كيف أحب قاتلي ؟!.. ولكني وجدت نفسي في جبل اللصوص جبل الموت .. خطفني وأنا طفل صغير ، حرمني من حضن أمي وأبي ، انتقم بي منهم فرضعت الإجرام والقسوة منه وفي جبله .

أحس ريحان المجرم القاسي بالحزن والشفقة على سيده أمير الفرسان وقال معبرا عن ذلك : إنك مأساة إذن يا صاحبي !

فقال زوابع : لقد منعني أن أعرف الحقيقة . . عندما كنت أسأله عن أمي ، كان يحبسني ويعذبني

ويقول : هذا سر لن أبوح لك به ، ولن أقتلك سأجعل منك نقمة سيفا أسله للثأر .. ممن يريد أن ينتقم ؟! لا أحد يعرف من أين اختطفني ؟! من أي البلاد أتى بي ؟؟ فكان عليّ أن أصير قاسيا مجرما لا أهاب المنية ، ولا أخشى أحدا .. فأصبحت سيد الفرسان وأميرهم رغم أنفه .. ملتصق به لأعرف سره وسري .. فلا سر ، مات فجأة قبل أن يتكلم ، لم يحاول أن يتكلم ..آه يا ريحان !!

فقال ريحان : إنك سيد الفرسان وأمير الفرسان ، وكنت سيد الجبل بلا منازع ، بل كنا نرى الرعب في عيني الغضبان منك ومن صوتك الشديد القوي .

فقال : كان يخشى أن أتمرد وأثور وأقتله فجأة .. ولكنه كان يعلم أنني لا أستطيع ذلك قبل معرفة السر الدفين بين جوانحه ، وها هو هلك قبل أن يتفوه به .. وها هو الجبل يتمزق يتشتت يا ريحان الشجاع .. قل لي ما العمل ؟!

فقال ريحان : لا شيء أيها الفارس .. علينا أن نرقد بضع ساعات ونصبر حتى ينسحب رجال الرايات عن الجبل .. فنعود إليه ، ولا نسمح لأحد من اللصوص في دخوله إلا تحت طاعتنا وحدنا .. لا يبقى إلا لرجالنا وأصحابنا هذا رأيي يا سيد الفرسان !.. ونمنع كل من خذلنا من الحياة فيه .

فقال زوابع : قول طيب .. فلنرقد ونستوطن هذه الغابة ونختبئ فيها إلى حين

أمر ريحان الرجال والنساء ببناء الخيام في هذه الغابة والحياة فيها حتى ينصرف رجال الملك قيس إلى بلادهم ، ورتب ريحان الحراسات حول الخيام والمعسكر ، وأخذ يرتب لإرسال الجواسيس إلى الجبل والعودة بأخبار الجبل .

هذا ما كان من زوابع و كلب الليل ورجال الجبل ، فقد تفرقوا أيدي سبأ ، كل زعيم وجماعته في ناحية .

هوى عبسان

مضت سنة قد تزيد عشرات الأيام على محاولة قتل الملك قيس بن خصيب ، وقد ذهل زوابع ورجاله لما علموا ببقاء الجيش في وادي السرحان ، وهم يشيدون قلعة ضخمة لنزول الفرسان فبدا لهم أنه من الصعب العودة إلى الجبل .. ، وكلب الليل صدم لما علم بالفكرة أيضا ، وسعى لإقناع غزالة ابنة أخيه بإغراء الملك بهراما على تدمير القلعة قبل أن تتم فرفض وزير بهراما الأمر وقال للملك : نحن نحمي القوم ، أما أن نذهب ونقاتل في مكان بعيد فهذا خطر على جندنا وبلادنا .

فلم تفلح غزالة بإقناع الملك بهراما في الغزو والقتال نيابة عن قومها ، فقد وجدته زير نساء ولهو فهو غير مهتم بالحرب والقتال ، فأحست بالندم على الاقتران به ، وفكرت بالهرب منه ، ولكن يذكرها قومها بحمايته لهم من جنود الأمير صقر بن غراب ، وأن الملك قيس ما زال يرغب بسفك دمهم وإذلالهم ، والحدث الأهم حدث في جوف الصحراء حيث استقرت الأميرة جميلة في خيمة عبسان وليمونة .. انطلق عبسان يوما للصيد وأبعد النجعة مم أثار الخوف عند المرأتين وجاء عند غروب اليوم التالي وهو يركب على ناقة .. وكن يعتقدن للوهلة الأولى أن القادم هو عمران أخو ليمونة .. فلما أناخ جمله ونزل فإذا هو عبسان ففرحن بعودته وعادت النضارة لوجوههن .. والأعجب من ذلك أنهن وجدناه مسرورا وفرحا على غير العادة ، ولما انتهى العتاب من ليمونة قالت : ما هذا الفرح الذي رسم على محياك ؟!

فقال : ابشري يا ليمونة ! .. خلاص انتهى اختفاؤنا ، سنعود للمدينة أو القرية .. فلقد زرت أحد الرجال ، فأخبرني بخبر سرني رغم حزني من الخبر ، ولا خوف على حياتي بعد اليوم ، فمضيت لمدينتنا وأتيت بناقة عمران..سنرحل .. سنرحل صباحا بعون الله .

فهتفت ليمونة : ما الأمر أيها السيد ؟ لم أفهم شيئا ؟!

فقال بفرح : لقد مات أعز الأصدقاء .. مات الغضبان يا ليمونة!

فقالت بدهشة وهي تحملق بزوجها : مات الغضبان !! .. الملك مات !

فقال بفرحه : أجل !!.. أجل فقد مات منذ أكثر من سنة ، مات ملكنا السابق يا ليمونة .. مات صديقي العزيز !.. إيه مات بعد فقده بصره ، وبعد مقتل ابنه وعل الجبل .. فلنفرح في هذه الليلة الأخيرة لنا في الصحراء ونودع الصحراء والأرانب .. مالك صامتة يا غالية ؟ ألا ترغبين بالسير معنا للمدينة ؟! سأزوجك من أجمل رجالها وخير رجالها .. تكلمي يا بنيتي ؟!

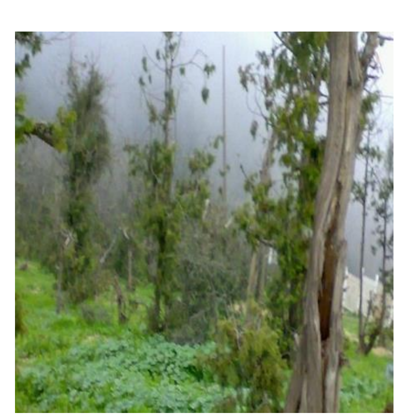
فقالت : يا أبتاه .. ماذا أقول ؟؟ إنني سعيدة بسعادتكم ؛ ولكني لم أفهم شيئا من كلامكم .. ومن الغضبان هذا الذي هو من أعز أصدقائك ؟! وهو سبب فرحك اليوم .. فهل موته يفرح لهذه الدرجة وهو صديقك؟!

تنهد عبسان وقال : أجل..أجل أيتها الفتاة الطيبة !.. سأحدثك الليلة ونحن نودع هذه الصحراء الجرداء بكل قصتي .. ستعرفين الأسرار التي كنت تحاولين معرفتها .. ستعرفين لماذا سكن أبوك عبسان في هذه الصحراء منذ سنوات وانقطع عن الخلق ؟ .. ستعرفين لماذا لم أحب أن أصارحك بأسراري وقصتي ؟ .. ستعرفين لماذا قبلت الحياة في هذه الصحراء ، وأنا الرجل المرعب الذي كانت نساء قريتي تخوف أولادهن به ؟.. ستعرفين كل ما أحببت أن تعرفيه عن سبب ابتعادنا عن الناس والبشر ..كل ذلك ستعرفينه بعد الطعام ، ستسمعين أنت وليمونة الكلام .. ليمونة امرأة صالحة ووفية رضيت بهذه الحياة ؛ لأنها اختارت عبسان وأحبت عبسان كنت شابا صغيرا لم أبلغ العشرين عندما التقيت بليمونة ، فخفق قلبي عندما رأيتها أول مرة عرفت الهوى والعشق ، وبادلتني هذا الهوى والغرام .. هي ابنة أسرة كبيرة في بلدة سبع عدسات ، عرف الناس بحبنا ، وانتشر بين الأهالي حبنا وغرامنا..أهلها رفضوا زواجنا، فكيف يقبل أبناء الأسر الثرية ابن الناس البسطاء ؟! لم نكن فقراء ؛ ولكننا لم نكن من أبناء الأسر التي تجلس مع الأمراء والملوك في السبع عدسات .. غضب أهلها لهذا الحب ضربوا الفتاة الصغيرة حسناء الحي وأتوا بزوج لها يا غالية .. في ليلة العرس طعنته بخنجري فأرديته قتيلا .. هربت إلى الجبال والكهوف القريبة من البلدة ..هناك وفي إحدى المغارات التقيت بشاب هارب مثلي مبتلى بدم إنسان من أهله .. تصادقنا وتعاهدنا على المحافظة على بعض .. هذا الفتى الشجاع

الهارب اسمه عشم فأخذنا نسلب المارة وندع لهم حياتهم .. نريد أن نعيش .. ندخل المدن لشراء الطعام ، ونعود للحياة في الجبال والأودية بين الكلاب والضباع والوحش ، ثم التقينا بمطاريد مثلنا ، فكونا نواة عصابة نحمي بعضا ونود بعضنا ، فبعضنا قد قتل، وبعضنا حاول القتل ولم ينجح ؛ ولكنه نجا بروحه ، كلنا متهمون ، كلنا أصحاب جريمة وحقد على مدننا وقرانا .. كنت أتسلل للسبع عدسات لأرى محبوبتي ليمونة.. كانت على العهد ، كانت تبذل كل جهد لتراني رغم الحصار المشدد عليها وعلى حركاتها.. ثم علمت أن زوجا جديدا قد تقدم إليها .. ولما كانت ليلة العرس صرعته وأعدمته الحياة ، أصبحت وحشا يا غالية لا تخافي مني خاف الناس من الزواج من ليمونة .. أقاربها هابوا الموت .. مات والد ليمونة يا غالية .. وبعد ذلك استسلم اخوة ليمونة لزواجي منها ، فطلبوا منها أن ترسل لي بموافقتهم ، ولما تأكدت من عدم المكيدة والكيد منهم اتفقت معهم ، وكان الزواج ، وفي ليلة العرس دخلت المدينة ومعي بعض الأصحاب وعلى رأسهم عشم صديقي ورئيس عصبتنا .. سكنت بها في الجبل ، جعلنا من أحد الكهوف عش الزواج ، سعدت بها وسعدت بي ، كانت تحبني وأنا كذلك وهكذا كان وكثرت غاراتنا على المدن وكثر مطاردينا ، فرحلنا لوادي السرحان وجبل ضراب ، وجدنا كثيرا من العصابات تقطن المكان ؛ ولكنّ عشما بوحشيته وقسوته المفرطة سيطر بعد حين على المنطقة كلها ، وأصبح الزعيم المهاب ، فأنشأ له قصرا ، وكبرت العصابة وكثر رجالها ونساؤها .. فأصبحت قرية .. وكنت من كبار أعوان الزعيم عشم الذي سمى نفسه بالملك الغضبان .. وكان غضبه على رجل من رجال الجبل يعني هلاكه وموته ، زادت أموالنا ودوابنا ، وكدنا نصدق أننا أصبحنا مملكة ؛ ولكن أعدادنا لم تتجاوز الألف رجل .. ثم كان حدث كبير في الجبال .. لقد علم الغضبان أن أميرة .. أميرة حقيقية محبوسة في الجبال عند أحد زعماء العصابات في الجبل الزعيم أبي الليل ذهبنا أنا والغضبان وبعض الرجال إلى مكان أبي الليل ورأى الغضبان الأميرة التي لجئت إليه وطلبت حمايته ، وهذه الأميرة كانت محبوسة بإسم قريب لها صديقا لأبي الليل ، وقد أتى بها الأمير هذا خوفا من زواجها من أمير غيره .. المهم أن

الغضبان عرض الزواج عليها فقبلت ووافقت ؛ ولكنها طلبت مهرا لها عجيبا عنا وعلينا ، وهذا المهر كان فرسا وسيفا لأحد ملوك بلاد الرايات التي ذكرت لنا أنك خرجت منها يا غالية .

فقالت الغالية : بلاد الرايات .. نعم إنها مسقط رأسي ومولدي .. أكمل يا أبا النهار إنني مصغية إليك بشغف وقوة .



فتابع أبو النهار كلامه ، وهو يعجب لشجاعتها وعدم رعبها منه رغم مصراحتها بأنه مجرم وسفاح وقاتل ، فتابع الكلام قائلا : لهذه الأميرة قصة لابد من سردها ، فهذه الأميرة لها قريب يحبها ، وكان يأمل بالاقتران بها ؛ ولكن سبقه إليها ابن ملك بلاد الرايات ؛ فاضطر لخطفها وأتى بها خدعة لأصحابه في وادي السرحان ، وكان والدها الملك قد طلب لها مهرا من الملك خصيب بن مرار صاحب بلاد الرايات ، وهذا المهر فرس أصيلة وذات قيمة كبيرة بين الملوك تسمى دموع ، وسيف يقال له سيف الفردوس يقال إنه من ملك الصين ، وافق الملك مرار على التنازل عن هذين الشيئين ، ولكن لما اختفت الأميرة أعاد والد الأميرة المخطوفة الفرس والسيف للملك خصيب .. فلما وافقت الأميرة على الزواج من الغضبان طلبت المهر السيف والفرس ، فوافق الغضبان وأرسل من يأتيه بهما ، فهلك الرجال أو أسروا ، وعرف الملك خصيب سرهم وحاجتهم ، وكرر الغضبان العنيد المحاولة وفشلت ، وفكر بغزو تلك المدينة ؛ ولكن رجالنا لم يكونوا بتلك الكثرة ، وأيضا بلاد الرايات تحتاج من المسير عشرة أيام من وادي السرحان ، وبينما نحن نفكر بالانتقام غزانا الأمير صقر ابن الوزير غراب بن عقاب وزير الملك خصيب فنحن في الجبل لا نستطيع مقاومة ومحاربة الجيوش القوية ، فأخلينا الجبل ، أثناء ذلك كان الأمير قيس الذي طلبها قبل قريبها قد تسلل إلى الوادي ، واستطاع أن يصل للأميرة التي يرغب بالزواج منها ، واستطاع

إنقاذها وعاد بها إلى بلاد الرايات ، وكانت بلاد الأميرة على اثر حادثة خطفها قد انقلبت على الملك جعد بن همام فتركها هاربا لخصومه ، ومات من الغيظ والقهر ، فلما علمت الأميرة الناجية ذلك حقدت على قومها وأخوالها ، وتزوجت من الأمير قيس الذي أنشأ لها مدينة صغيرة سماها على اسمها مدينة سُلمى وحشد لها قوات وجندا عدة سنوات ، ولما اكتمل الإعداد تحركوا نحو بلاد أبي كبشة لتحريرها من نحاس وأعوانه ، وكانت الأميرة سُلمى قد أنجبت للأمير قيس عدة أبناء ، وأثناء حربهم مع بلاد أبي كبشة – وهذا المهم في قصتي اليوم – صمم الملك الغضبان على الانتقام من الأميرة وزوجها ، فنزلت أنا وإياه إلى مدينة سُلمى وأثناء انشغال القوم بالحرب نصبنا كمينا ومكيدة لخطف ابن الأميرة سُلمى ، وفي غفلة من الحرس والخادمة خطفنا فتى صغيرا قدرنا عمره بثلاث سنوات أو أربع ، وهربنا به إلى الجبل ووادي السرحان – ونحن أكثر من محاولة للأنتقام بذلنا ، وتهيأت لنا الفرصة خلال حربهم – ولم يعرف سر هذا الغلام المسروق إلا أنا ، أي أعرف من هو أبوه وأمه ؟ .. والقوم في الجبل ظنوا أنا قتلنا أهله وأشفقنا عليه فأتينا به الجبل ، إذن انتقم الغضبان من والديه ، كان يريد أن يجعل من الأمير الصغير مجرما شرسا عنيدا فسماه زوابع ، وكبر الغلام وتوحش ؛ ولكنه كان يسأل عن أهله ، والغضبان يصارحه أنه خطفه لينتقم به منهم ، وخشي الغضبان صديق العمر أن أكشف السر أو يعرف الشاب أنني أعرف السر ، فصارحني قائلا : يا عبسان أنت صديقي وصديق العمر ، ومن بداية الدرب وأنا أحبك ، ولا أريد أن أخسرك ؛ ولكنك الوحيد الذي يعرف سر هذا الربيب ، وأنا لا أريد أن يعرف ، ولا أريد أن أغدر بك ؛ ولكنك شوكة في حلقي فاختفِ من حياتي ، ولا أريد أن أعرف المكان الذي تختفي فيه .. لقد كان تهديدا واضحا وصريحا فحملت زوجتي ليمونة وأتيت إلى هذه الصحراء منذ سنوات وسنوات ، ولم يكن يعرف مكاني أيتها الحسناء الشجاعة إلا أخو هذه المرأة عمران .. ابتعدت عن المدن والقرى خوفا من غدر الصديق القديم عشم ، وفي خروجي الأخير طرقت أحد الأصدقاء القدامى ، فأخبرني بهلكة الغضبان وموته ، فأتيت إليكم مسرعا لأخرجكم من هذه الصحراء القاحلة ومن الخوف

والموت ، فهذه قصتي وأسباب حياتي في هذه الصحراء يا ليمونة ويا غالية ، فغدا بمشيئة الله سنرحل إلى قرية قريبة من السبع عدسات نقترب من الأهل رويدا رويدا .

كانت الأميرة جميلة ذكية وفطنة رغم تلون وجهها أثناء سماع الكلام وتساقط الدموع بين الحين والآخر وهي تسمع القصة ، فقد أدركت أنها قصة أمها وأبيها الملك وأخيها الضائع ، فحمدت الله على حادثة الجواد ، وعلمت أن أخاها الضائع يحيا مع رجال الجبل ، ويحمل اسم زوابع ، وهو مجرم عتيد ، علمت كل ذلك وكتمته في قلبها ، وتمنت لقاء والدها الملك لتحدثه بذلك ، وفجأة سمعت ليمونة تقول لها : أين سرحت يا غالية يا ابنتي ؟!

نظرت إليها وقالت : إنني أفكر بكل ما سمعت من هذه القصص المتشابكة والغريبة .. هل نسيت يا أبتاه بعد كل هذه السنوات في الصحراء العصابة والجريمة ؟!

فقال بحزن : أنا لم أولد مجرما يا فتاتي .. الهوى والحب سبب اندفاعي وارتكابي للجرائم .. لو رحمني أهل ليمونة ما أظن أنني قتلت إنسانا وقتلت ؛ ولكن لا ينفع الندم ، وأنا سكنت الصحراء لأنني لا أريد أن أموت بيد صديق العمر ، وهو لم يشأ الغدر ليبقى السر سرا .. فها أنتم عرفتم كل أسراري ؛ لأنه لم يعد هناك سر ، فقد هلك الغضبان، وأنا لا أفكر بالعودة إلى الجريمة ووكر العصابة، فقد تفرقوا وهربوا ، فالملك قيس قد أرسل لهم من جديد الأمير صقر ليحاربهم ، بل أمر بإنشاء قلعة ضخمة في الجبل ليمنع اللصوص من التجمع ثانية ومن الحياة في وادي السرحان ، فأسأل الله أن يجنبني الجرائم ثانية.. فلننم بضع ساعات لنرحل مع الفجر ، فهذه هي الأسرار التي كنت ترغبين بسماعها يا صغيرتي ! وأعجب أنك لا تخافين رغم معرفتك من عمران أني مجرم عتيد ، وأزهق روح الإنسان كما نزهق روح الطير والحيوان

فقالت الغالية : حق أني عجبت منك لما حدثني عمران عن وحشيتك ؛ ولكن رقة ليمونة وحبها لك كان يثير عجبي أكثر ، فرأيت أن الظروف التي أحاطت بك أيام الصبا ، وطيش الشباب قد دفعا بك للحياة في الجبال مع الوحوش واللصوص ، وقبل أن ترد أيها الرجل الطيب .. أذكر أنك الرجل الذي أنقذ حياتي وعالجني وحفظ شرفي وعفافي ، فما رأيك بأن ترحل وتصحبني

إلى بلاد الرايات ؟ ولسوف يكرمك أهلي غاية الإكرام ، فهم من الأغنياء ، وسيسرون بك وبليمونة، هم بالتأكيد اعتقدوا موتي بعد أن يئسوا بالبحث عني ، عندما أكلم والدي بقصة حياتك سيتعاطف معك ويشفق عليك ويعذرك ويحميك .

أخذ عبسان نفسا عميقا وقال : آه ! كم تشأمت عندما خبرت أنك من بلاد الرايات ! لقد راودتني نفسي والشيطان بطرحك في الصحراء ؛ ولكني رفقت بك وعطف قلبي عليك وقلت إنك مسكينة مثلي ساقتك قدرة الله لهذا المكان .. أعرفت الآن لماذا لم أفكر بالوصول إليها إلى بلاد الرايات ؟ .. لقد شاركت الغضبان في خطف ابن مليكها ، وهي سبب خروجي من الجبل طريدا خفيا في هذه الصحراء .. فماذا سيحل بي لو عرفوا أنني من رجال الجبل ؟

فقالت الغالية : وكيف سيعرفون أنك من رجال الجبل ؟!

فقال : يا بنيتي ..أنا كنت من رجال الغضبان المعروفين والمرافقين له.. والأمير قيس قبل أن يصبح ملكا قد تحايل علينا ودخل الجبل وعاش فيه عدة أشهر ، ولابد أنه رأني برفقة الملك الغضبان ، ولا أظن أنه نسي سحنتي .

فقالت بعد صمت : أيها الرجل الطيب أحب أن أعوضك عما قدمت لي .. فأهلي الآن يعتقدون هلاكي وموتي ، فعندما يرونني حية سينسون ما فعلت مع الملك ، وسيشفعون لك عند مولانا الملك ، بل سيطلبون مساعدتك وإكرامك .. وأرى أن الملك قيس سيطلب مساعدتك في العثور على ولده الضائع الذي أسميتموه زوابع.. أليس كذلك ؟!

فقال : أجل أيتها العزيزة .. عميقة الفكر فطنة والله !.. ولكني أحب الحياة .. وأحب ليمونة

فقالت : أنت تريد أن تسكن بطرف مدينة السبع عدسات على أمل الاقتراب من المدينة، وتأكد أنني بعدما عشت كل هذه المدة معكم وفي رعايتكم فلن أغدر بكم ، وهذا عهد أقطعه على نفسي فسأدع أبي وهو من الأكابر أن يتشفع لك عند الملك ؛ فإن قبل الشفاعة أظهرتك ، وإن رفضوا فضلك سأخبرك بذلك ، وأدعك تبتعد ولن أنساك أبدا .. وإذا خشيت من غدرهم سأقتل نفسي قبل أن تقتل .. أريد لك السعادة والحياة الهادئة والبعد عن الجريمة والقتل والغدر

أخذ عبسان الرجل المجرم بالبكاء كالأطفال ، وهو يسمع كلام الأميرة وحنوها وشفقتها عليه وكانت زوجته الصامتة طول مدة هذا الحوار تشاركه الشهيق والزفير والدموع ، فلما اكتفى من البكاء ، وألقى المزيد من الحطب على الموقد نظر في عيني الأميرة على وهج النار وقال : يا غالية بالذي خلقك ابنة مَن مِن السادة في بلاد الرايات ؟!

فابتسمت الأميرة له ابتسامة رقيقة وقالت : أتسير معي إذا ذكرت لك اسم والدي ؟ وتثق بي وأنني مثل ابنتك كما عشنا خلال هذه الشهور الماضيات .

فقال: سأثق بك ! فأنا واثق بك أصلا ؛ ولكن لي حسابات قديمة في بلادالرايات ، وسأسير معك إذا كنت ممن يعرفون والدك وثقله ومكانته عند الملك قيس

فهمست بصوت هادئ : أنا ابنة الملك قيسيا أبي!

فغرعبسان فاه دهشا،وقال بدهشة غير المصدق وهو يقف : الله !! أيعقل هذا ؟! ابنة الملك تعيش سنة في هذه الصحراء وهذه الخيمة الخرقاء !

فقالت : أنا جميلة ابنة الملك قيس والملكة سُلمى .. الأميرة التي سكنت في جبل السرحان بين عتاة المجرمين ، وأنا اليوم أخت الأمير زوابع الذي خطفه ملكك الغضبان ، واعلم يا عبسان أنا إذا أمنتك فلن يمسك أحد بسوء ، وتأكد أن والدي لا ينسى المعروف والخير رغم ما فعلته بنا.. وما أنت إلا رجل من رجال الغضبان تسير بأمره وتعمل بأمره .

فعاد عبسان للجلوس ثانية وهو مازال يحدق النظر في الفتاة الشجاعة ويهمس قائلا : ابنة الملك قيس.. أمعقول هذا ؟!

فقالت : صدق هذا أيها الرجل ! وإذا وصلنا بلاد الرايات ستتأكد من ذلك ، وأقسم لك قسما عظيما إنني لن أغدر بك أو أسلمك للجلاد ، بل نحن بحاجة إليك ولحياتك لنصل لـزوابع ليعرف الحقيقة ليعرف أمه وأباه ، وقد ساقتني حكمة الله الجليلة إلى صحرائك؛ لنعرف هذه الحقيقة ، وننـقذ أخي من العالم الذي يعيش فيه ، نحن بحاجة إليك يا عبسان تعاون معنا يا أبي الطيب ! وستبتسم لك الدنيا وتنعم بالحياة الطيبة مع ليمونة .

كانت ليمونة مذهولة هي الأخرى من المفاجأة !

فقال عبسان : لم يبق لي كلام .. وكما قلت قدرة الله قد جمعت بيننا في هذه الصحراء لإنقاذ الأمير زوابع ما اسمه الحقيقي ؟!

فقالت برنة حزينة : الأمير سيف الزمان بن الملك قيس أيها الرجل! فرغم قسوة الفراق والجريمة فستكون ساعة اللقاء جميلة ومنسية للماضي وغمه وجرحه

فقال عبسان مستسلما : مع الفجر يا ابنة الكرام سنتحرك إلى بلاد الرايات ، ومهما حصل لي فأنا أستحق ذلك ؛ ولكن وصيتي إليك يا جميلة .. ليمونة ، فهي وحيدة في هذه الدنيا ، لا أهل لها ولا إخوة ، وعمران هذا إذا هلكت أمها فلن تراه أبدا ، وصيتي إليك ليمونة إن لم يقبل والدك الملك العفو عني .

فقالت : ويحك !.. أتظن أن الملك قيس شهيته الانتقام والثأر .. لا .. إن لم يعفو عنك سأموت معك يا عبسان .

فقال : إنني واثق منك ، ومن شجاعتك ، فكلما أراك تصطادين الأرانب والحبارى والقطا كنت أظن أنك رجل متنكر لولا تأكيد زوجتي لي أنك أنثى مثلها .

ضحكت جميلة حتى بدت أسنانها وقالت : أبي يحب الفروسية والصيد ، وكان يحب منا أن نكون فرسانا ومقاتلين ، فاعتنى بنا وأمر بتدريبنا ، وقد رافقته كثيرا إلى القنص .. فوالدي مغرم بالصيد من قبل أن يصبح ملكا ، بل تعرف على أمي الأميرة سُلمى الملكة فيما بعد في رحلة صيد بوادي الثعالب .. فلنرقد أيها الرجل الطيب ، ولسوف ترى من أبي الملك ما يسرك ولا يضيع المعروف عندنا .

المسافة بين صحراء عبسان وبلاد الرايات تحتاج مسيرة يوم أو أقل بقليل من الساعات وتحركوا مع بواكير الفجر ، فركبت المرأتان الجمل ، وركب عبسان الحمار ، وساقوا الغنيمات ، وبعد مسير مضن في حر الصحراء وبردها اقتربوا من بلاد الرايات ، ومع ظهور الصباح مشوا نحو المدينة ، وكل غارق في خواطره ، ومع الظهيرة وصلوا أحد أبواب المدينة ، ولما شاهد أمير الباب

الأميرة جميلة ، لم يصدق ما تراه عيناه فهتف مدهوشا : الأميرة جميلة ابنة الملك بعد كل هذه الأيام ؟!

فقالت باسمة: أجل ، وأسرع الآن وأخبر مولاك الملك بعودتي .

فركب الجواد مسرعا نحو القصر ، ولما رأى عبسان ذلك هم بتقبيل يدي الأميرة يبدو أن الشك قد زال من نفسه بصدق الفتاة ، فذعرت جميلة لهذه الحركة وسحبت يدها عجلة وقالت : لا تفعل أيها العم والأب العزيز .. أنا مدينة لك بحياتي أيها الرجل الطيب !

فقبلها من رأسها وقال: بل أنا مدين لك من اليوم .

وتقدمت جميلة وليمونة ويتبعهما عبسان على حماره وبين يديه الغنيمات .. تفاجأ أهل ديوان الملك بما يسمعون ، ودهش الوزير عقاب ، ودخل على الملك سريعا فأسر إليه بما قاله أمير الباب ، فصعق الملك ونهض مسرعا ، وخرجوا نحو الباب المذكور ، وأدركوا الأميرة في منتصف الطريق ، فنزل الملك عن حصانه الأدهم واعتنق الأميرة ، وهو لا يكاد يصدق ما ترى عيناه من حياة ابنته، وكان عبسان دهشا مذهولا للغاية مما يرى، ومن حب الملك ولهفته ، ومن صدق الفتاة وتواضعها معه في الصحراء ، ولم تحاول الظهور بأنها ابنة ملك عظيم وحفيدة الملك خصيب صاحب الصيت العظيم والمعروف ، وعبسان يعرف قيس حق المعرفة عندما عاشرهم فترة في وادي السرحان ، وتقدم الملك إلى عبسان المدهوش الحائر يصافحه ويباركه ويشكره على مساعدة ابنته في تلك الصحراء ، فتقدم الرجل الكهل يريد تقبيل يدي الملك ، وهو يبدي احترامه له وللأميرة ، وفعلت ليمونة المذهولة كما فعل زوجها ، فشكرها الملك ورحب بهم أجلّ ترحيب وألطفه ، وبينما القوم فرحين بعودة الأميرة سائرين لقصر الملك أقبل كثير من أهل المدينة يشاهدون عودة الأميرة التي يئسوا من حياتها ويرحبون بها ، وأمر الملك قيس بالأفراح والصدقات وفتح موائد الطعام للعامة والخاصة ، وأقبلت العواتق من خدروهن يسلمن على صديقتهن الجميلة جميلة ، وكان يوما كبيرا في بلاد الرايات ، وأرسل الملك قيس رسولا إلى بلاد الأكباش لإخبار الملكة سُلمى والملك مرعي بعودة ونجاة وحياة الأميرة جميلة

وكان الملك قد أمر بإنزال عبسان وزوجته في قصر الأقواس أحب القصور إليه وأمر بإكرامهم غاية الإكرام .

وسر وفرح أهل المدينة بحياة الأميرة ، وأحضر عبسان لقصر وديوان الحكم ، وقدم له الجميع التحية والشكر والهدايا ، ولما انتهى الناس من الفرح بعودة الأميرة جميلة سألها والدها : لماذا لم ترسليه إلينا يخبرنا بحياتك ونجاتك ؛ لنرسل إليك الخيل والجمال والرجال ؟

فقالت : هو لم يعرف أنني ابنة ملك إلا منذ ليلة مضت ، ولو طلبت منه ذلك لم يفعل .. وكنت في صحراء مخيفة فخشيت أن أكشف أمري له من أول يوم ؛ لإصابتي بالكسر أولا ولغموضه فقلت لنفسي لا يسكن مقطوعا عن الناس إلا رجل متهم أو هارب .. ألم تعرفه يا أبي ؟ ! فهو يعرفك .. فهذا وجه قد مر عليك

فقال قيس وهو يفكر ويتذكر : خيل لي ذلك .. ولكن لا أذكر اليوم شيئا .. فذكريني .

فقصت الأميرة على والدها قصة عبسان ، ولم ذكرت حياة أخيها كاد الملك أن يصيح من الفرح والبشارة وهتف قائلا : سيف حي .. سيف حي ! ما أعظمك يا رب الأرض والسماء ! رب ضارة نافعة ؛ ولكن للأسف والخسارة إنه يعيش مع المجرمين ، بل أراد قتلي زوابع هذا ، أتذكرين فارس الغابة يا جميلة ؟!

فتذكرت جميلة فارس الغابة فهتفت : أتعني أن ذاك الفارس كان أخي.. يا الله !! صدق يا أبي أنني لما شاهدته في ذلك اليوم خفق فؤادي لرؤيته ، وخشيت على نفسي من العشق والغرام الذي يتحدثون عنه ولما عرفت أنه مجرم ارتاحت نفسي إنه أخي سنبحث عنه يا أبي .

لقاء زوابع

رغم الغضب الذي أصاب الملك لما عرف شخصية عبسان ودوره في خطف ولده البكر ، وتذكره أنه رآه في وادي السرحان ضمن حاشية الغضبان ، مع كل ذلك غلب معروفه بالمحافظة على حياة ابنته وعفتها على سيئاته ، وبما أنه ذو قلب كبير فنسي كل الآلام التي سببها له ، وحمل الغضبان كل ذلك ، وعفا وصفح عنه، اكراما لابنته وتعهدها بحفظ حياته ومكافأة لمعروفه

معها ، وأبقاه حيث هو ، وطلب منه عدم محاولة الهرب ، وأنه آمن على حياته ، وأعلمه أنه ضيف الملك ، وأن وجوده مهم في البلاد حتى يأتوا بـزوابع أمير اللصوص ؛ ليسمع منه القصة ويصدق أنهم أهله،وبعد ذلك فهو بالخيار إن شاء البقاء في بلاد الرايات فله ذلك وعلى الرحب والسعة ، وإن شاء العودة لبلده فالملك سيتشفع له عند ملك تلك البلاد ، فسر عبسان غاية السرور بعفو الملك عنه ، وتعهد للملك قيس بالبقاء حتى يلتقي بولده المخطوف ، بل أبدى استعداده للبحث عنه .. وفرح عبسان بعطف الأميرة جميلة عليه وعلى زوجته ولكثرة ترددها عليهم وتفقد أحوالهم في قصر الأقواس .. القصر المحبب على قلب والدها الملك قيس .

وكان عبسان عندما فارق الصحراء قد كتب على شجيرة قريبة من الخيمة رسالة لعمران لأنه عندما استعار منه الناقة أخبره بأنه سينزل المدينة أو أطرافها ، ولما تغيرت وجهة نظره بعدما أباح بسره إلى الغالية، وعرف من هي الغالية ؟ فكتب رسالة قصيرة على الشجرة التي كان قد زرعها قرب الخيمة ، وفعلا لما تأخر عبسان قلق عليه عمران ، وأرسلته أمه إلى الصحراء ، فأتى المكان ووجد الخيمة فارغة ، ودار حول المكان عدة مرات ، فلم يجد لهم نارا وأثرا ، ولم يجد قرب الماء والثياب ، فأدرك أنهم رحلوا ، ثم رأى الخنجر مغروزا بالشجرة ، فعجب من ذلك وسار نحوه ، ولما أراد نزعه لمح الكتابة على جذع الشجرة نحن مشينا نحو بلاد الرايات عند الملك ، نزع الخنجر وفكر طويلا .. بلاد الرايات .. بلاد تلك الفتاة هل أراد أن يوصل تلك الفتاة لأهلها ثم ينكس نحو مدينتنا ؟ ولكن لماذا عند الملك ؟! وما علاقة عبسان بملك بلاد الرايات وبعد تفكير عميق صمم على الرحيل نحو بلاد الرايات وعدم العودة إلى مدينته قبل لقاء أخته وعبسان ، وبعد حين دخل بلاد الرايات ونزل في أحد الخانات ، وسأل صاحب الخان عن عبسان ظانا أنه ربما نزل هذا الخان الكبير مع اعتقاده أيضا أن أحدا لن يعرف عبسان ؛ ولكن ربما صدف وتعرف به صاحب الخان ، وما كاد يسأل عنعبسانويذكر وصفه حتى صاح الرجل صاحب الفندق: الرجل الطيب !!.. إنني أعرفه .. لقد أنقذ حياة أميرتنا المحبوبة . وأخذ بوصفه ، فدهش عمران لمطابقة الوصف لـعبسان فقال : كيف أنقذ أميرتكم ؟!

فقال الرجل : يا هذا قلت لي إن هذا الرجل زوج أختك .. سأرسلك لقصر الأقواس وستسمع القصة منه .. فأميرتنا جميلة فقدت منذ سنة، ولما تعافت أتى بها ذاك الرجل الطيب .. فالفتاة التي عاشت معه في الصحراء هي الأميرة جميلة ابنة الملك قيس بن خصيب .

فقال عمران لنفسه : أوه !! .. الآن عرفت سر الشجاعة والجراءة في تلك الفتاة .. لم أشعر لحظة أنها تخاف من عبسان رغم أنني حدثتها عن إجرامه؛ لتحذر لنفسها ، فقد قابلت ذلك بغير مبالاة ، ولم تحاول طلب أخذها معي ، والآن فهمت أيضا قوله عند الملك .. فقام عمران عندئذ بشكر صاحب الخان ، وهتف وهو ينقلب نحو قصر الأقواس : والله يا عبسان فتحت عليك طاقة السعد !

وسر عبسان وهو يرى عمران صهره ونسيبه ، وتعانق الرجلان وقال عمران مداعبا ختنه : والله هبطت عليك السعادة يا عبسان ! وأصبحت نزيل القصور بدلا من الخيم والكهوف .. هنيئا لك يا أم النهار ..

ولما علمت جميلة بضيف عبسان أتت بنفسها ترحب وتسلم عليه وتحييه ، فأراد أن يقبل يديها احتراما فاعتذرت وقالت ضاحكة: لا يا عمران ! فهل أنسى الأيام التي تسامرت أنا وإياك بها في صحراء عبسان.

فقال عمران : والله يومها عجبت من شجاعتك وثباتك! ولم يدخل الرعب قلبك وأنا أحدثك عن عبسان رغم أنك أنثى ، وتسكنين مع وحش رهيب قتل الإنسان عنده أهون من قتل حشرة ، فاعتقدت يومذاك أن الصحراء هذبته ولينته وحسنت طباعه وأخلاقه رغم وحشتها وقسوتها .

وتذاكرا الصحراء وأيامها ، وصنعت الأميرة وليمة كبيرة للسيد عمران ، وسمع عمران قصة عبسان والأميرة ومجيئهم لبلاد الرايات ، فقال لـعبسان : إنه السعد يا سعيد ، وإذا وجد الملك ابنه الضائع ستصبح من رجال المملكة الكبار يا عبسان .. فالأميرة مسرورة منك وتقدر معروفك وإنها تحب ليمونة الصابرة على هفواتك وعفراتك .

فقالت ليمونة : بل الملكة سُلمى ملكة بلاد أبي كبشة أقبلت بنفسها تشكر عبسان رغم ما فعله بابنها ، بل وهبته عقدا من الجواهر أغناه للأبد ، وكذلك فعل الملك مرعي ، وعجب عبسان لكرم هؤلاء الملوك ، وبكى من عظم كرمهم معه، ومسامحتهم لغلطته الكبرى في خطف الأميرسيف الزمان، ووعدته الملكة بالغنى الأبدي إذا اجتمعت بولدها سيف بعد كل هذه السنوات الطوال .

كانت الأخبار قد وصلت لوادي السرحان والفرسان بعودة الأميرة بنت الملك قيس سالمة فعم السرور القوم ، وانتشر الخبر عندهم أن الملك يريد لقاء المدعو زوابع حيا ، وأنه طليب الملك بل أتت الأميرة جميلة بنفسها لوادي السرحان وجبل ضراب، ورأت البنيان الذي يشيد ، وفرح الجند بوجودها واحتفلوا بنجاتها ، ثم ألقت خطابا فيهم ، وطلبت منهم عدم قتل أي لص يقع بين أيديهم قبل أن تراه ويعرض عليها ، وأن ربيب الغضبان زوابع شخص مطلوب للملك ، ويريده الملك حيا ، ولم تكشف لهم سر اهتمام الملك بشخص زوابع ، وهم فعلوا ذلك خوفا على حياته من غدر اللصوص والمجرمين .

ولما علم زوابع النزيل في الغابة من جواسيسه وعيونه في وادي السرحان ومن أهالي القرى التي تبيع بقولها ولبنها لجنود الملك قيس أنه طليب الملك قيس أدرك وزاد تأكده أن الملك قد عرف دوره الكبير في المكيدة التي دبرها لخطفه أو قتله غيلة، وعجب من قصة نجاة الأميرة التي قلب الدروب باحثا عنها يومذاك ، وقد انطلق يبحث عنها مع رجاله بعدما فشل في اللحاق بها ومطاردتها راكبة الجواد المتمرد ، وعجب من رغبة الملك والأميرة ببقائه حيا ويقول لنفسه : ماذا يعدون لي من الانتقام والعذاب ؟؟

وكان زوابع قد سمح لمن شاء من رجاله بالانفكاك والعودة لبلادهم ومدنهم أو أي قرى بسلام فلم يبـق حوله الكثير ، ونزل الكثير من رجاله القرى ، وقنعوا بحياة الفلاحين والبسطاء ، وأما زوابع فلما وصلته رغبة الملك والأميرة بالحفاظ على حياته قال لريحان : أريد أن ألتقي بهذه الأميرة يا ريحان .. أريد أن أعرف لماذا يريدون لي الحياة ؟!

فيقول ريحان بقلق : أنسيت ماذا فعلت بها عندما أطعمنا الجواد ورد العشب المثير والمهيج ؟ وكيف هرب بها الجواد ونبذها في الصحراء بعد مسير مخيف؟! .. إنها راغبة بالانتقام والثأر

فقال زوابع ضجرا: مللت النوم والكسل منذ هجرنا الجبل ضعف نشاطنا وحركتنا .. أفكر بلقاء الأميرة لترى من أنا، لن أغدر بها، ولن أمسها بسوء ، فقط سأثبت لها أنني أستطيع النيل منها ومن أبيها ، وأنني لا أخشاهم ، وإن كان في ذلك غرور يا ريحان .

فحاول رجاله ثنيه عن هذه المقابلة والمغامرة ؛ ولكن زوابع كما عرفناه يحب الطيش والمغامرات فقد سرق ورد ، وغزا مدينة أبي كبشة وسرق خزائنه ، وغزا كثيرا من المدن والبلاد ، وكاد يفتك بالملك قيس دون رهبة ووجل ، فلما علم أن الأميرة أتت واد السرحان للقبض عليه حيا ومقابلته ، فكر بلقائها وتحديها والاجتماع بها ثم الهرب ، فقال لرجاله : سوف أفكر بحيلة ألقى بها هذه الأميرة المدعوة جميلة ؛ لتعرف من هو الأمير زوابع ؟ أمير فرسان الجبل ، لا تخشوا شيئا على أنفسكم ، ها نحن لنا أكثر من سنة نيام .

بعد أيام يسيرة كان زوابع يضع خطة وحيلة للقاء الأميرة جميلة، وليعرف منها سبب حقدها عليه ورغبتها بلقائه ، وهو الفارس الصنديد ، فطلب من أحد رجاله الذين يترددون على جبل السرحان بصفة فلاحين يبيعون فواكههم وخضارهم للجنود أن يهمس للأميرة بأنه يعرف وكر ومقام زوابع.. واتخذ زوابع وكرا قريبا من جبل السرحان، وفعلا استطاع العين الفلاح العجوز أن يسر للأميرة بسره ، فتمعنت الأميرة بكلامه الخطير وقالت : أحقا أنك تعرف مكان اختفاء زوابع ورجاله ؟!

فقال الفلاح بثبات : أجل يا مولاتي ! إنهم يختفون بكهوف قريبة من قريتنا ، وذات مرة اعترضوني وسألوني عن أخبار الجبل وبناء القلعة ، فسمعت أحدهم – وقد ذكر اسم زوابع بينهم – يقول لآخر : إنه فلاح يبيع ثماره لجنود الملك قيس ، فاخلوا سبيلي ، ولما علمت أنك مهتمة به أحببت أن أسر لك هذا السر من غير أن يعرف أحد أنني كشفت لك سرهم وإلا أهلكوني كما تعلمين ، فهؤلاء قوم لا رحمة ولا شفقة في قلوبهم على بني الإنسان ، ولولا

حاجتهم لبضاعتنا لمابقوا علينا أحياء لليوم .

وأخذ يصف لها المكان الذي يختفون فيه ، فشكرته ووعدته بالجزاء الأوفى ، وقالت : استمر في عملك وبيعك وترددك علينا حتى أفكر بطريقة نصل إليه يا قمريني .

ولما انصرف الفلاح المدعو قمريني ، وركب حماره متظاهرا أنه كان يبيع الأميرة بعض الفواكه الجميلة والطيبة ، سعت الأميرة إلى الأمير صقر وتحدثت معه بشأن زوابع والفلاح .

فقال الأمير : هؤلاء الفلاحون لا يطمئن المرء إلى كلامهم كثيرا ، فهم يعملون مع جميع الأطراف ، ونحن لا نثق بهم كثيرا ، فهم يزرعون البساتين ويقطفون ثمارها لبيعها لنا ، وقد كانوا يبيعونها قبل مجيئنا لرجال الجبل ، وقد ابقوا على حياتهم لحاجتهم لهم ولزروعهم .. فهم يبيعون الزرع ويقبضون قطع المال ، والحذر من تعاونهم مع اللصوص مطلوب أيتها الأميرة

فقالت الأميرة : أنت تعلم أيها الأمير القائد أنني أريد مقابلة الأمير سيف أو زوابع فحتى لو كانت مكيدة منه ؛ فأنا أتيت ساعية للقائه ..

فقال : ولكننا نخشى على حياتك من لحظة غدر وخيانة .

فقالت بثقة وحماس : أنا إذا وصلت لـزوابع أرى أن الأمر انتهى ، فقد تقابلنا قديما في غابة بلاد الرايات – القصة التي تذكرها يوم سرقة الفرس – ولكن أخشى أن أقابل غيره فلذلك سأقبل المسير مع الفلاح لأعرف المكان ، وسيسير خلفي مائة فارس يجب أن لا أغيب عن ناظرهم ، وسيرافقني أيها القائد الكبير أشجع فرسانك ..

فقال : سأختار لك أشجع فرساننا ليرافقك ، ويتبعكم مائه أسرع من الطير في الخافقين ، وسيتبع المائة مئات ، فعسى أن نلتقي بأخيك أيتها الشجاعة ، ولولا ثقة الملك بشجاعتك لما أرسلك إلى هذا المكان المرعب البعيد عن العمران والمدن .

بعد حين أرسلت الأميرة للفلاح قمريني متظاهرة أنها ترغب بشراء ما يحمل من الفواكه ، ولما خلا المكان قالت : أنت حدثتني قبل أيام أنك تعرف مكان اختباء زوابع ورجاله ؛ ليفسدوا في الأرض، كم نحتاج من الوقت للوصول إلى مكانهم ؟

فكر قمريني قليلا وقال : نصف نهار على الأكثر .

فقالت : ألا تخشى أن يروك وأنت معنا ستذهب حملة معك ؟!.

فقال : أنا لن أذهب معك يا مولاتي الأميرة ! سأدلك على المكان ، وأهرب إلى قريتي ، والأفضل أن يذهب عدد قليل من الفرسان ؛ لأنهم إذا شعروا وأحسوا بكم سيختفون ولا يعترضونكم فهؤلاء اللصوص يخافون من الكثرة والجنود

فتظاهرت جميلة بأنها اقتنعت بكلامه وحرصه فقالت بدهاء : سأسير أنا وأحد الفرسان ؛ لنعرف المكان ، ثم نرتب لهم كمينا فيها بعد .. أليس هذا جميلا ؟!

فقال الفلاح بحماس : هذا عين الصواب ! وعندما نقترب من الوادي الذي يختفون فيه سأرشدكم وأختفي أيتها الأميرة ! وخذوا حذركم ، وعندما تفوزين وتتحققين من القبض على زوابع أرجو ألا تنسوا مكافأتي .

فتبسمت الأميرة وقالت : أبشر أيها الشهم .. الآن انصرف ، وعندما تأتي في المرة القادمة سأشترى بضاعتك ونتحرك سريعا .

وبعد أيام أتى قمريني ، فأخذت الأميرة منه الثمار وسارت معه ، وكانت على جوادها ، وهو على ظهر حماره ، ورافقها الفارس غالب ، ولما ابتعدوا سار خلفهم الفرسان المائة بخفة الطير وعلى شكل جماعات ، وكانت بينهم مسافة معقولة ، واستمر السير حتى دخلوا وادي النهر ، ثم صعدوا صعودا مرهقا ، وهناك أشار قمريني إلى صفحة جبل ومغارات يختفي فيها رجال زوابع ، ثم تابع ابتعاده وهربه عن المكان ، وهبطت الأميرة إلى أحد الوديان نحو المكان الذي أشار إليه البائع العجوز ، وبينما هم يقتربون من المكان المشار إليه ظهر عدد من الفرسان على خيولهم ، وبعد حين أحاطوا بالأميرة والفارس غالب اللذين أوقفا جواديهما متظاهرين أنهما متفاجآن ، ولما اقترب الفارس زوابع من الأميرة وراءها عرفها وتذكرها ، فأصابته الدهشة فصاح دهشا : أنتِ .. أنتِ ؟! فتاة الغابة !.. إنك لبوءة لقد رأيتك ذاك اليوم الذي لا ينسى ! أشار زوابع إلى رجاله العشرة بالنزول عن خيولهم وتقديم التحية للأميرة وفعل مثلهم ثم قال

: أيتها الأميرة .. أتذكرين يوم الغابة ؟! .. إنه يوم لا أنساه ! لقد شاهدتك والبنات تصرعن رجالنا ببارقة السيف ، فأكبرت شجاعتكن ، ولم أكن أعلم أنك أميرة أو أميرات ، وكنت في عجلة من أمري .. أتذكرين عندما قلت لك إننا لصوص ومجرمون ؟! فلا تسألن عنا ، ولم أذكر لكنّ اسمي رغم مناشدتكن لي بذلك ذلك اليوم .. فأنا الفارس اللص أمير فرسان الجبل زوابع، أمير الملك الغضبان– لعنه الله – ملك اللصوص وقطاع السبل ، أنا زوابع الذي ترغبين بلقائه حيا ؛ فأنا جئت ودبرت ذلك ؛ لأراك وأسمع الغاية من اللقاء بي .

قالت بثبات وهي ترسم على وجهها ابتسامة : أعرف أن قمريني جاسوس لكم.. وأنا جئت وأنا متأكدة أن في الأمر مكيدة وحيلة ؛ ولكني أنا فعلا بحاجة إلى لقائك .. أنظر ها هم فرساننا يا أميرزوابع قد ظهروا ؛ ولكن اطمئن ، نحن لا نريد رأسك ، ولا جسدك ، فرأسك ثمين لدينا نحن نريدك حيا لأن أمرك يهمنا ، وحياتك تهمنا رغم سرقتك للفرس ورد ، ورغم محاولتكم قتل مولانا الملك

فهمس زوابع متعجبا : إنك أشجع من رأيت أيتها الأميرة ! وإنك أذكى امرأة تمر بي ! وأنا كنت مدركا أن حيلتي لن تنطلي عليك ؛ ولكنني ظننت الغفلة قد تكون فيك ، ولا يكاد يخلو بشر من غفلة ، والآن وقبل نشوب المعركة ، ربما تكون الأخيرة في حياة زوابع ، أريد أن أعرف لماذا تريدون لقائي وحياتي؟!

نزلت الأميرة عن جوادها ، ولم تسحب سيفها من غمده وقرابه ، واقتربت من زوابع الذي احمر وجهه من الخجل فأعاد السيف إلى غمده ، وقال مرة أخرى وبعدم مبالاة : لماذا تريدونني حيا هل لأنني حاولت خطف الملك والدك ؟! ترغبون بتعذيبي ؟!

فقالت الأميرة وهي تقف أمامه وتحد النظر في عينيه : لا .. نحن نريدك حيا ؛ لأننا عرفنا سرك الخفي ، عرفنا أمك وأباك ..

فهتف دهشا : أمي .. وأبي !! أنتم تعرفون أمي وأبي ؟!

فقالت بشفقة وحنان : أجل أيها البطل !.. نحن نريدك ؛ لأن لنا أكثر من عشرين سنة نبحث

عنك .. ألا تريد أن تعرف أمك وأباك ؟

فكان الفارس مضطربا ، وهو يحدق النظر في الفتاة التي تتحدث معه بثبات وقوة أعصاب وعطف ، وهو الفارس الشجاع يرتجف أمام أنبائها وعاد يقول : تعرفون أمي وأبي ؟! .. أمي حية وأبي حي !.. لم تعد أعصابي تطيق وتحتمل أيتها الأميرة تكلمي بالله تكلمي ؟!.. إني أتمنى الموت على أن يكون بعد رؤيتها ولو لحظات .

فقالت : أحق ما تقول ؟

فقال : كدت أن أقتل الغضبان من أجل أن أعرف أمي وأبي ، وهو يدرك أنني في أي لحظة أعرف أسرتي التي سرقني منها سأضع خنجري في صدره .. أنت تعرفين أسرتي ؟.. ارحميني أيتها الأميرة .

فقالت : أحقا تحب أمك وأباك ؟ .. هل تعلم أن أباك هو من أردت قتله ؟ وأن أمك هي من سرقت أموالها ؟ فأبوك الملك قيس بن خصيب ! وأمك الملكة سُلمى بنت جعد !

لم يستطع زوابع الكلام ، وأصابه ذهول أو كأنه لم يصدق ، فهبط على الأرض ووضع رأسه بين يديه صامتا محدقا في الأرض ، فسمع الأميرة تقول : نحن عرفنا ذلك منذ عهد قريب من رجل ساعد في خطفك من قصر أمك وأبيك في مدينة سُلمى .

نظر إليها وقال : أنت إذن أختي ! أنت إذن أختي!

فقالت وقد طفر الدمع من عينها : انهض ..أنا أختك جميلة ابنة الملك قيس .

فصاح بصوت كالرعد : رباه !! رباه !! أنا ابن الملك قيس ! وخفض صوته وقال : آه !! أدركت الآن لماذا كان اللعين يدفعني لقتل الملك قيس أو يقتلني الملك إذا سقطت بين يديه ؟! يا لله ! إنه انتقام رهيب مرعب ! وقد دفعني لسرقة بلاد أبي كبشة .. اللعين قتلني ألف قتلة! أختاه !.

وفتح ذراعيه واحتضن أخته ، وأخذا يمسحان دموع بعضهما ، وهما يبكيان ، وكان فرسان الأمير صقر في دهشة من هذا الاحتضان ، وكذلك رجال زوابع ؛ فإذا صقر الأمير على رأس

الجند يهتف ليزيل الاستغراب واللبس : إنهما أخوان !! .. هذا ابن مليككم المفقود أيها الناس! فأجهش الجميع بالبكاء والشهيق والزفير لهذا اللقاء ، والأمير زوابع قد أصبح الأمير سيف الزمان، وقد استمع الحكاية حكاية خطفه ونقله إلى جبل السرحان ، وأمر الأمير صقر رجال زوابع بالالتحاق والمسير لجبل السرحان ، وأن الملك سوف يعفو عنهم جميعهم ويلحقهم بفرسان المدينة ، فأخذ الفرسان يعانقون الأمير صقر ويشكرونه ، وهم مندهشون لما آل إليه أمرهم من رجال فارين خائفين إلى رجال آمنين مطمئنين ، سار الأمير سيف معهم نحو الجبل وهو يكاد يطير من الفرح والسعادة ويقول بشوق ولهفة : متى أعانق أمي ؟ متى أقبل أبي ؟! .. متى أرى عبسان ؟ إنني أذكره .. لقد كان من رجال الغضبان من المقربين ؛ ولكنه اختفى فجأة وظننا أنه قتل أو مات ..

غزالة

كانت غزالة زوج الملك بهراما تـجلس في قصرها على فراش النعام والحرير ، وحولها إخوتها وعمها كلب الليل وأعمامها الآخرين ، عندما دخل عليهم الغلام ومخبرا لهم أن رسولا من أبي هند يقف بالباب ، ويرغب بالمثول بين أيديهم ، فأشارت للغلام بطرف حواجبها أن يدخله ، فدخل رجل شرس المحيا كثيف الشعر مخيف الهيئة ؛ كأنه لم يدخل حماما منذ سنة ، فألقى التحية باستعلاء وقال : أنا رسول الملك أبي هند إليكم ، وقد أتيتكم بخبر عظيم !

فقالت غزالة وهي ترمقه بسخط : اهدأ أيها النحس قبل أن تتفوه بالخبر العظيم .

فظل الرجل بانفعاله الظاهر عليه واستعلائه وقال : لقد جئتكم بخبر عظيم عن الأمير زوابع ربيب والدكم الغضبان !

فقطعت غزالة الكلام وقالت هازئة من اسم المذكور: هل قتل؟ هل أتيت تنعيه لنا يا رسول الشر ؟!

فقال الرسول باستهزاء وسخرية : لم يقتل .. أيها السادة ؟!

فقال كلب الليل ساخرا هو الآخر : إذا لم تأت بنبأ موته ، فما هو الخبر العظيم الذي بعثك به

ملكك أبو هند العجوز الميت ؟!

فقال الرسول : لقد وجد والديه!

ضحك القوم بصوت عال وقهقهوا ، وصاحت غزالة ساخرة : يبدو أن أبا هند رجل مخبول ، أرسلك إلينا لتقول لنا : إن زوابع اللعين وجد أبويه .. ألا لعنة الله عليكم ما أسخفكم ! وماذا يهمنا من معرفته لوالديه ؟!

فقال الرجل وهو يهز رأسه ومنكبيه مستهزئا بهم : اسمعوا الخبر كله، ثم علقوا واسخروا بعد ذلك كما تشاءون .

فعادت غزالة للشتم واللعن وقالت : ويلك من رسول تعس ! هل بـقي شيء من الخبر؟

فصاح الرسول والسخرية بين شفتيه وقال : ألا تريدون أن تعلموا من هم والداه ؟ .. ولم ينتظر الجواب ، فتابع قائلا : فأبوه أيها السادة هو الملك قيس ملك بلاد الرايات ، وأمه الملكة سُلمى ملكة بلاد الأكباش .

ولزم الرسول السكوت ، وصدم القوم لهول النبأ وسادهم الصمت والوجوم ، وقاموا عن مساندهم وأخذوا يحدقون في عيون بعضهم بعضا ، ولما زالت دهشتهم تمتمت غزالة بخوف: ويلك ! أهذا نبأ صحيح يا رسول النحس ؟!..إن هذا خبر لا يصدق .

فقال الرسول باسما وشامتا: نعم ، تأكد لنا ذلك.. بل انضم رجاله لجيش القائد صقر بن غراب وكثير من أتباعنا يفكرون باللحاق بهم وإعلان توبتهم .

فقال كلب الليل ساهما حالما : إيه يا ابنة أخي وعل الجبل !.. إني أكاد أن أصدق أن اللعين زوابع من نسل الملوك ، فسوى جبروته وعزته الغريبة فينا ، فقد كان كثيرا ما يردد أبي بعد انصرافه من مجلسه يا ابن الملوك ! صنعتك لصا وقاتلا جبارا ، وكان يحب أن يناديه بالأمير ، أتى الأمير ، وانصرف الأمير ، وكنا نظن أنه يقصد نفسه .. فهو إذن ابن الملوك وهذا السر الذي كان زوابع يسعى لمعرفته كان يتشاجر مع الغضبان ليعرف من أين أتى به الملك الغضبان ؟..

ولكن يا رسول النحس كيف عرفتم هذه الحقائق ؟

فقال الرسول : من الفلاحين الذين يترددون على الجبل لبيع الخضر والحب ، فقد احتفل القوم بلقاء زوابع وعودته لأهله ، فحدثوا رجالنا بذلك ، وأتت أخته الأميرة جميلة وعرفته بنفسها وأهلها ، وقد ساروا نحو بلادهم للقاء الملك الكبير .

فقالت غزالة : يا قوم أصبح وضعنا في خطر ! .. فهذا الشاب كان يكرهنا أيام جدنا فكيف اليوم ؟! عندما عرف ماذا فعل به والدكم الغضبان ؟ وحرمه من حضن والديه..فأخشى أن تراوده نفسه بغزو بلاد الملك بهراما للقضاء علينا والانتقام منا ، فهو شاب حقود دموي وحش هائل متعطش للدماء والانتقام ، ويبغض الناس ، عليكم بالتزام جانب الحذر والتربص به .

فقال كلب الليل مبديا قلقه هو الآخر : معك حق يا غزالة .. فالحرب ربما تستعر بيننا ، وهو عندما يرى والديه سيعدهم برؤوسنا وبكنوز الغضبان التي سلبها من خزائن أمه سُلمى ..

فقالت غزالة : الكنوز !!.. أجل يا عماه ، سيشتد الصراع من أجلها ، ولا يعرف نفق الغضبان إلا أنت .. والجبل أصبح ملكا لهم ، وهم يشيدون قلعة للبقاء فيه للأبد .. أيها الرسول انصرف راشدا إلى صاحبك أبي هند ، وسلم سلاما دافئا عليه وعلى رجاله ، ونحن سنأخذ حذرنا .. وأفضل أن تلتحقوا بنا ، وتخضعوا لزعامة كلب الليل بدلا من رئاسة ذلك العجوز ؛ لنقاوم انتقام زوابع سوية ، فأخبره أننا بانتظاره .

فقال الرسول وهو ينصرف : سلام وإلى اللقاء .

فلما غادرهم رسول أبي هند ، قالت غزالة : إنسان على صورة وحش !.. إنه يتشبه بوحوش الفلاة .. كان يطمع بالزواج مني !



وصرفت الأميرة الصبيان والنساء من مجلسها ، ولم يبق إلا الرجال الكبار فقالت لهم متظاهرة بالجد والقلق: كنوز الغضبان الآن أصبحت في خطر ! فزوابع ورجاله يعلمون أن جدنا يخفي أمواله في مكان خفي ؛ ولكنه مكان في وادي السرحان وفي جبل الرملي .. وأنت يا عماه كما علمت منك قديما تعرف

المخبأ الخفي لتلك الكنوز ؟.

فقال كلب الليل قلقا مما تبطن غزالة: تعلمون أنني كنت أرافق أبي إلى كهف الكنوز ، وكما تعلمين لم يكن أحد يجسر على متابعتنا أو اللحوق بنا ؛ لأن ذلك يعني موته .. ولكن زوابع كان أسدا بيننا ، وهو سيعتبر نفسه صاحب هذه الأموال الكثيرة ، وسيقلب الجبل بحثا عنها ، ونحن لا نستطيع المغامرة ودخول وادي السرحان ، فكيف بقرية والدي ؟! ولا

نستطيع أن نصل إلى الكنوز إلا بالعمل المدبر المحكم أو دحر جيوش القائد صقر.. والملك بهراما زوجك النحس ، لا يرضى قومه بالحرب نيابة عنا ، وأنت رضيت بحياتك خادمة عنده ونسيت قومك ، ولم تعودي تفكرين بقضيتنا وعودتنا إلى مملكتنا المسلوبة .

فقالت بحدة معهودة فيها : ويحك يا عماه ! .. إنني أبذل كل جهد ليبقى بهراما خاتما بيدي ؛ ولكن الحرب لا تقوم في هذه المدينة إلا بموافقة مجلس الأمراء والتجار والحكماء .. وهذا لا يجب أن يمنعنا عن حماية كنوز جدنا الغضبان ، وأنت إذا عجزت عن قيادة قومنا فأعطِ أخي شدادا الزعامة واعتزل الحكم والمشورة ..

فقال بحدة : ويحك إنك تغضبينني ! .. فهل عجزت وهرمت لتتكلمي معي بمثل هذا الكلام البارد مثلك ؟! .. واحذري أن أسمعه منك ثانية ؛ فإني قاتلك دون شفقة وهوادة ورحمة .

فقالت بغضب وسخط : على هونك أيها الزعيم النائم منذ جئنا هذه البلدة !.. على هونك.. أنا أريدك أن تتحرك وتفعل شيئا قبل عودة زوابع من مقابلة أمه وأبيه .

فأجابها بغضب أيضا : لن يصل زوابع لكنز الغضبان .. ولن أضع كنز الغضبان تحت رحمة بهراما زير النساء والخمر يا ابنة أخي الشجاع !

فقال أحد الجالسين راغبا في تخفيف التوتر الذي لمع على الوجوه والعيون : يا ملك كلب ! لا داعي للشجار الآن ، نحن اليوم بحاجة للاتحاد والقوة ، لا للتفرق والتمزق ..

فقال شداد مهدئا للجلسة : وأنا يا عماه ! لا أقبل أن أصبح ملكا عليك ، إنما غزالة تهيجك للدفاع عن ثروة جدنا وميراثنا لتلك الكنوز.. فكلنا شركاء في تلك الثروة .

فقال كلب : : لستم أحرص مني عليها ، ونحن لما هربنا لم نكن بحاجة لحملها معنا ، فبقاؤها في الجبل كان خيرا للجميع وءامن ، ونحن لم نكن نعلم أن الملك قيس سيفكر بالبقاء على جبل السرحان وأن يضمه لأملاكه .. وعلينا الآن التصرف بذكاء وفطنة ، ولا يجب أن ننسى حقد زوابع علينا قبل أن يحقد على أموالنا ! فنحن أبناء الغضبان ووراثه.. فثأره عندنا ، وبغضه لنا كلنا معروف .

لما تفرق الجميع ومشوا الى معسكرهم أرسلت غزالة سرا وراء أخيها شداد ، ولما خلت به قالت : يا أخي العزيز ! كان أبوك أحق بالزعامة والملك علينا أكثر من عمك كلب ، ولكن كان عمك هو بكر الغضبان ، فكانت خفايا الملك الغضبان عنده .. وكلب رجل متردد وغير حازم ويمكنك أن تصفه بالضعف .. وزوابع هذا خطر كبير علينا وعلى أموالنا ! واعلم أن كلب لن يفعل شيئا غير الثرثرة ، ولن يكشف لنا عن موضع كنز الغضبان .. فهو لا يثق بنا ، ويظن أنه أحق الناس بأموال الغضبان .. فعليك يا ابن أمي وأبي أن ترسل قاتلا جريئا وحشا إلى بلاد الرايات ، وليس له هدف إلا الفتك بـزوابع .. وإذا سقط وكشف أمره عليه أن يلصق التهمة بأبي هند .. زوابع يعرف أننا منقسمون ، وأن أبا هند مستقل عن أبناء الغضبان .. ثم علينا أن نعرف مكان الكنز من عمنا كلب بأي طريقة .

فقال بقلق : هذا أمر خطير يا أخية !.. نخشى أن نتصارع فيها بيننا ويدب الشقاق والقتل بيننا فأولاد كلب لن يغفروا لنا قتل أبيهم بأي حال من الأحوال .

قالت : أنا لم أقل لك بقتله.. نحن نريد معرفة كنوز الغضبان وتقاسمها أو على الأقل نأخذ حصة أبينا وعل الجبل سيد الأبطال في وادي السرحان . وتساقطت بعض الدمعات على ذكره وبعد صمت قال شداد : نحن تحت أمرك ، ففكري ودبري لنا وعلينا نحن التنفيذ

فقالت بقوة : عليكم بالضغط القوي على عمك ، وتحريض الرجال على ذلك حتى يرشدكم للكنوز الدفينة من عشرات السنين ، ولا يبقى وحده حافظا ومالكا لها .. اذهب الآن .

وخرج شداد وهو حائر بأقوال أخته غزالة متضعضض الفكر ، ولماذا هي خائفة على الكنوز ؟!

وهي زوجة الملك بهراما ، ولديها كنوز المدينة كلها ، فذهب شداد إلى عمه كلب وصارحه بكلام غزالة ، وأنها أصبحت تشكل خطرا وجشعا على القبيلة ، فقال كلب بغضب : لقد جنت أختك ألا تشبع من الذهب والفضة ؟!.. إنها تفكر بالخلاص مني .. أشكرك يا شداد على حبك لي ، ونفذ أمرها في إرسال رجل للفتك بـزوابع.. نفذ ذلك ، واحذروا الفشل ؛ فإن حقد زوابع سيكبر ويتضخم ، إن كان في قلبه بعض الرحمة علينا ؛ فإن فشلنا ستزول هذه الشفقة والرحمة وأمر الكنز سأدبره ، وأقول لكم عن موضعه.. أو أكشف السر للبعض قاتلك الله يا غزالة تسعين لدمارنا وهلاكنا وامتلاك أموالنا .

أراد شداد أن يلعب على الحبلين كما يقال ، أن يكسب غزالة المستأسدة بزوجها الملك ، ولا يخسر عمه كلبا ، فهو يعرف بأس كلب وغضب كلب ، فأما غزالة فغرورها وتسرعها ونزقها لا يسمحون لها بالتفكير السليم الناضج .. وقد جرى اجتماع آخر للضغط على كلب ولكشف السر .. ولما أصر على عدم ذكر مكان الكنز ، فاشتد غضب غزالة عليه وهددته بالموت علنا وبدون مواربة .

فقال وهو يكظم ثورته : حسنا يا ابنة أخي ! فقبل أن تقتليني أمهليني يومين أو ثلاثة حتى أحسم أمري في ضغطكم عليّ ، سأتجاوز عن تهديدك أيتها اللعينة ؛ لأجل العائلة والقبيلة .

سرت غزالة لهدوء عمها ، وتظاهرت بالأسف والانفعال وقالت : فكر عشرة أيام .. فنحن شركاء في أموال جدنا الملك ، وليست هي ملك لك وحدك ، فوعل الجبل ابن أبيك يا عماه .

فرد كلب ساخرا : أنت لا تشبعين ، وهذه الجواهر التي تملأ عنقك ممن يا غزالة ؟! .. واعلمي أن قتلي والغدر بي سيبعدكم عن الكنز إلى الأبد ..

فقالت : يا عماه ! نحن لن نقتلك ، هي هفوة لسان خرجت من فمي في لحظة غضب وتسرع ، أنت تعرف اندفاعي وتسرعي ..إنما نحن نريد حصة والدنا القتيل ، ولا يجب أن يبقى السر عندك وحدك .. فأخي شداد أهل إلى أن يعرف السر فالموت يُقبل فجأة ..

فصاح قائلا وهو ينهض للأنصراف : حسنا .. حسنا يا ابنة أخي ! أيام وأحسم هذا الأمر الذي

شغل بالك منذ أيام ، وداعا أيها الرجال .

وأظهر كلب الاعتكاف في خيمته ، ولم يسمح إلا لغلام خادم واحد يدخل عليه بالطعام .. بل يضعه على باب الخيمة ويبتعد ، ولما اقتربت نهاية الأيام العشرة – المهلة التي منحتها غزالة لعمها بالتفكير – أرسل كلب قبل اليوم الأخير الغلام الخادم للخيمة لغزالة يطلب منها جمع الرجال ؛ ليكشف لهم مكان دفن وإخفاء أموال الغضبان .. فسرت غزالة لذلك ، وأمرت كبار قومها بالاجتماع مساء الغد ، ولما اجتمعوا تأخر كلب عن الحضور ، وطال انتظاره وتأخره ، فأرسلت إليه شداد يستعجله ، ولما دخل الخيمة لم يجده فيها ، فسأل عنه ، فأنكر الحضور رؤيته منذ دخل الخيمة ، فعاد شداد إلى أخته وأخبرها باختفاء كلب ، فأرسلت وراء الغلام الذي كان يمده بالزاد فقال لها : إنه لم يكن يسمح له بالدخول إلى جوف الخيمة ، إنما يأمره بوضعه أمام الخيمة ويبتعد ..

وهذا الغلام كان من جواسيس غزالة ، فقد أهدته لعمها منذ تزوجت بالملك بهراما ، وكان كلب قد أخبر أولاده الكبار الثلاثة بأنه سيختفي إلى حين ، وطلب من أحدهم أن ينوب عنه في الخيمة ويمثل أنه كلب ، وغادر كلب ليلا وخفية معسكر اللصوص ، ولما تأكدت غزالة من هربه وخدعته لها قتلت الغلام من الغضب ، معتقدة أنه متواطئ مع عمها، وقد خانها رغم خدماته الكثيرة لها خلال الأيام الماضيات ، وكلفت أخاها شدادا بمنع هرب أي شخص من أبناء كلب ، بل طلبت من بهراما أن يحبسهم ففعل ، وظهر الغضب والضيق في عشيرة غزالة من فعلها اللئيم ، بل شداد نفسه لامها على هذا التصرف الأحمق ، وزجرها وتوعدها وهاجمها بشدة ، فغضبت عليه هو الآخر ، وأمرت حرسها بأن يضعوه في السجن مع أبناء عمه ، وأرسلت الجند يحرسون معسكر عشيرتها وأتباعهم ، وبمنعهم من الرحيل والهرب، ولنترك غزالة وقومها في صراعهم حول أموال الملك الغضبان .

لقد غمرت الأفراح بلاد الرايات والأكباش مرة أخرى بعودة الولد الضائع منذ ما يزيد عن ربع قرن من الزمان ، ولما تمت أيام الأفراح طلب الملك قيس من ولده سيف الزمان بأن يجلس

مع حكماء البلاد سنة من الزمان ؛ ليتعلم القراءة والآداب والحكمة والشعر ، فوافق الشاب على ذلك ؛ ومع ذلك لم يستطع الصمود أكثر من أشهر ثلاثة ، فقد أرسل حكيم المدينة مدرسا على القصر يلقى على مسامعه الدروس في الحكمة والآداب والشعر ، وكان الفارس يقضي أكثر وقته مع أخته الأميرة جميلة، ويسيران معا للصيد ويتبارزان سوية ، وذات مرة عرضت عليه الأميرة الزواج من إحدى بنات الأمراء ، فقال باسما : يا أختاه ! لا أفكر بالزواج بعد..



فهناك دين بيني وبين كلب الليل، فأموال أخي مرعي لم تعد بعد ، وقد وعدت أبي بالبحث عنها ولكن الملك أمرني بالصبر والانتظار حتى يتم بناء القلعة ، فعندئذ سيسمح لي بالبحث عن كنوز الغضبان ، ولكني أخشى يا أميرة الدنيا أن يسبقنا كلب وغزالة إليها ، فهي قد أوقعت الملك بهراما في غرامها ونكحها ، ولا يرفض لها أمرا ، وكاد أن يشعل حربا بين بلده وبلدنا لولا رفض مجلس الحكم في بلده الحرب الخارجية ، ولا يعلم دفائن الغضبان سوى كلب ابنه .. لم نكن نهتم بذلك ، ونكترث لذلك ، فكل كان يأخذ نصيبه .. ولما تركنا الجبل كنا نظن أننا سوف نعود إليه قريبا كما حدث في الماضي القديم ، وذلك بعد انسحاب الجيش .. فكثير من رجال العصابات تركوا أموالهم دفينة في رؤوس الجبال والكهوف .

فقالت : يا أخي الشجاع .. أتريد أن تظل بدون امرأة حتى يتم بناء القلعة والحصن .. فابنة الأمير صقر فتاة رائعة الحسن وفطنة ، وهي ابنة صديق أبيك الأمير صقر ..

فقال ضاحكا : لقد رأيتها أكثر من مرة بصحبتك وفي سهرات القصر ، ولا أدري لماذا ليس عندي ميل للحسناوات لليوم ؟! فكأن قسوة الجبل وخشونة الحياة أضعفت رغبتي نحو النساء أو أنني لم اصطدم بالمرأة الفاتنة الجذابة ..

قالت : صدق لو تجلس مرة واحدة مع ابنة الأمير ؛ لسوف تترنح غراما ، وهي بها إعجاب بشخصك القوي وشبابك الحيوي .

فقال : صبرا يا أختاه !.. ما رأيك بالسفر إلى بلاد أخي مرعي الملك ؟ .. فأنا مشتاق لأمي فلي

أكثر من شهر لم أرَ وجهها وألمس حبها وحنانها .

فقالت : لا بأس بذلك .. وما رأيك بأن نصحب الأميرة عبلة معنا ؟ لعل الرحلة تغير أفكارك نحوها وتقترن بها ..

فقال: لا أفضل ذلك.. أنا أحب صحبتك أنت وحدك ، فلندخل على الملك ونستأذنه .

فدخلا على الملك قيس وبعد كلام ونصائح قال قيس : أتريد أن تهرب من دروس العلم والأدب يا ولدي ؟ .. إنما نفعل ذلك من أجلك ؛ لتكون الفارس الشجاع المتعلم ، فلربما تصبح ملكا مكاني يوما ما ، فلا يحسن بك أن تكون من أهل الجهل والسذاجة .

فقال سيف معتذرا عن ضعفه في تحصيل العلم: لقد كبر سني على التعليم يا والدي ! وعشقت الخيل والرماح ؛ ولكن سأبذل قصارى جهدي في تعلم بعض العلم ..

فقال الملك : الزواج ألا تفكر فيه ؟ .. أم أنت كأبيك في الماضي ، كان يكره فكرة الزواج والنساء حتى جرى ما تعرفه لنا .

فقالت الأميرة : إنني أحدثه كثيرا عن ذلك ، بل عرضت عليه الأميرة عبلة ابنة الأمير القائد صقر بن غراب ..

فهتف الملك مقاطعا : إي والله ، نعم البنية ، فتاة جميلة ورقيقة وشجاعة .

فرد سيف قائلا : سيدي الملك ! لست بعجلة يا أبي ، دع الأمر للخالق .

فقال الملك وهو يتذكر أباه عندما كان يضغط عليه للزواج ويرفض: كما تشاء .. فسلموا على والدتكم الملكة ، وعلى أخيكم الملك مرعي ، وعلى أولاده ، ولا تتأخروا في العودة إلينا ، وخذ معك عشرة من الجنود والحرس .

فقال سيف : لا داعي يا أبي .. سيرافقني غلامي وغلام الأميرة ، ولماذا نضع هذه السيوف على عواتقنا ؟!

فقال الملك : يد الغدر لا ترحم يا ولدي .

فقال سيف : وماذا ينفع الحرس من يد الغدر؟!

يد الغدر

لما اقتربسيف الزمان وأخته جميلة من مدينة سُلمى وأطلا على القصر ، قالت الأميرة وهي تشير بيده نحوه : ألا ترى هذا البنيان الجميل ؟.. من هذا القصر سرقك الغضبان وعبسان.. كان النصر في بلاد أبي كبشة ، وهنا كانت الجريمة .

فقال سيف : هنا ولدت إذن .. من هو أمير هذه المدينة اليوم؟

فقالت : على ما أظن الأمير جُبار ، وهو من رجال أبيك المخلصين ، وهو الذي ساعد أمنا كثيرا في وادي السرحان عندما خطفها ابن خالها المسمى ماجد وما هو بماجد .

فقال سيف : سمعتك تتحدثين أنه لم يقتل في معركة الإنقاذ ، وقد نجا بريشه ثم انقطعت أخباره

فقالت مفكرة متذكرة : احتار الناس في أمره ، قالت أمي : إنها لم تجده ، ولم تعثر على جثته ، واختفى أثره منذ ذاك الحين .

فقال سيف : ماجد .. الأمير ماجد ! .. لقد سمعت بهذا الاسم في الجبل ، وكان عندنا زعيم يدعى أبا الليل ، وعندما كان يحضر مجالس الزعيم الملك ، كان يرافقه في بعض الاحايين رجل أسمع القوم يقولون: أتى أبو الليل والأمير ماجد ، ولكنني يومذاك لم أكن أكترث للأسماء ، ولا اعيرها أي اهتمام ، ولما أصبحت فارسا من فرسان وادي السرحان لم أعد أراه أو أسمع به ، وبالأصح عندما هلك أبو الليل، وترأس ابنه جماعته لم نعد نرى ماجد في مجلس حكم رجال الجبل .. فلقد كان لهم ديوان كبير في قرية الغضبان يجتمعون فيه ويتدبرون فيه شأن الجبل أيتها الحسناء الشجاعة.. أي معلومات مهمة عن ماجد هذا أستطيع معرفتها من نائب الملك أبي هند لو أني أراه وألقاه سيدلني على ماجد هذا ومصيره ، حتى اليوم لا أدري هل سار رجاله اليوم مع غزالة وعمها كلب أم ظل وحده مع رجاله ؟ .. فنحن انقسمنا ثلاث فرق ، طائفة مع غزالة وكلب ، وطائفة مع أبي هند ، والآخرون معي ، والقليل انصرفوا لقراهم ومدنهم .. فأكثر هؤلاء اللصوص يأوون للجبل ؛ لأنهم هربوا من أوطانهم لارتكابهم جرائم قتل ، فيجدون في الجبل الحماية والرعاية وكل شيء لابد لي من زيارة وادي السرحان .

فقالت الأميرة : لا داعي للقاء أبي هند هذا ، ولا يهمنا مصير الأمير ماجد بعد كل هذه السنوات
فقال سيف : أليس هو سبب مآسينا وتعرف أمنا على الغضبان وعرقلة زواجها من أبي الملك ؟
فقالت : بل ظنوا لأول الأمر أن الأمير ماجد هو خاطفك ، وأنه كان قد دبر المكيدة قبل سقوط المدينة بأيدي فرسان الملك قيس ، ولم يخطر في بالهم الجبل ورجال الجبل .

ولما علم أمير مدينة سُلمى بوصول الأميرين خرج بنفسه يرحب بهم ويستقبلهم ، وأولم لهم الطعام وأمضى الأميران ليلة في ضيافة الأمير جُبار، وجلسوا في حدائق القصر يستمتعون بما فيها من الأشجار والأزهار والمياه ، وكان جل حديثهم عن وادي السرحان وضياع الأمير الصغير سيف ، ومع إشراقة الشمس استأذن الأخوان بمتابعة الرحيل والمسير لزيارة والدتهم وأهليهم في الأكباش ، ولما ابتعدوا عن المدينة بيومين شعر سيف الزمان بأنه متبوع ، فتنبهت أعصابه للقتال والدفاع عن نفسه وأخته وصارحها بذلك فقالت : أنا أحسست بذلك منذ فارقنا بلادنا ، علينا بلزوم الحذر، واعلم أن الذين يتبعوننا ثلاثة ملثمين ، ولم يبق للوصول إلا يومان ؛ فإذا كانوا يقصدوننا فسيتحركون ويمكرون بنا قريبا قبل دخولنا المدينة .

فرتب الأميران حيلة لكشف هوية متتبعيهم ، واختارا المكان المناسب لتنفيذ ذلك ، فقرب شجرة نزل الأميران والخادمان ، وخلعوا بعض ثيابهم ، وعلقوها بالشجرة ، وربطوا الخيل بالشجرة ، وصنع لهم الغلامان الطعام فأكلوا ، وجلسا تحت شجرة أخرى للنوم والراحة ، ثم وقفت جميلة بعد حين يسير على تل وحدها حتى ملأ الظلام المكان ، فانسحبت إلى غار صغير توارت فيه ، كان سيف ينتظرها فيه ، وأما الرجال الثلاثة المتعقبون القوم فلما اختفى جسد الأميرة تقدموا مشيا على الأقدام نحوهم ، فلما لمحوا الخيل قرب الشجرة ، ولمحوا الثياب المعلقة وكُومتين من الرمال المتمدد على الأرض عليهما عباءاتان يظنهما الرائي جسدين راقدين ظنوا أن الأميرين قد ناما ، فرقدوا ساعة من الزمان حتى اشتد الليل والحلكة ، وكان سيف وجميلة يتابعونهم من الغار ، فشاهدا رجلين يتقدمان نحو الشجرة ، والثالث تأخر ومعه الخيل ولما وصلا الشجرة شرعا خناجرهما وانقضا على الجسدين الرملين الوهميين ، ولما لم يسمعا صوتا

أو صراخا أو يريا دما رفسا الثياب ؛ فإذا هي مخفية أكوام من التراب ، فتطلعا حولهما فشاهدا سيفا وجميلة والغلامين ، وهم مشرعون سيوفهم ، فهجما عليهما بسرعة ؛ ولكن ماذا يفعل خنجر مع سيف ؟ فسقطا ميتين على الأرض ، وقفز سيف على جواده وانطلق سريعا خلف الرجل الثالث ، ولم تطل المسابقة ، فنزل الفارّ عن جواده وطلب العفو والصفح ، فساقه سيف حيث أخته والغلامان ، وكان الغلامان قد أشعلا النار في المكان ، ولما شاهد سيف وجوه القتلى قال للرجل الأسير : إنكم من رجال الجبل ووادي السرحان ؟! .. لا ينجيك أيها اللعين إلا الصدق .. من أرسلكم ورائي يا قتلة؟!

رد الرجل المرعوب : الأمان يا سيد الفرسان ! .. سأقول لكم كل شيء .. أبو هند يريد رأسك ونحن ننفذ أمره .

لم يرد سيف بل لزم الصمت حينا من الزمن ثم قال : أبو هند يريد رأسي ؟! .. وماذا بيني وبينه اللعين ؟ .. إنني لا أصدقك إنك تكذب .. ولماذا يريد أبو هند رأسي ؟!

فقال الرجل وهو يرجف : لا أدري ، ولكن أظن أن الأمر يتعلق بكنز الغضبان .. فهم خائفون على كنوزهم منك ومن رجالك .

فقال سيف بحدة وقوة وهو يضع طرف السيف على عنق الرجل وينخزه به : والذي خلقك إنك من رجال غزالة ، ولست من رجال أبي هند !.. صاحب الكنوز هو الغضبان اللعين ، وليس أبو هند إني قاتلك كصاحبيك إن لم تصدقني الحديث .

فقال الرجل وهو يلتفت نحو الفتاة ويبعد السيف عن عنقه: أنا دخيل عليك أيتها الأميرة ! أنا فعلا من رجال غزالة زوجة الملك بهراما .. سأقص عليكم الأمر .

وحدثهم عن صراع غزالة وكلب ، وهرب كلب من معسكرهم في بلاد بهراما ، وهم خائفون من ضياع الكنوز وأموال الغضبان على يديك ، فكلفتني الملكة وهؤلاء الرجال بالقضاء عليك وإذا وقعنا بين يديك أن نتهم أبا هند .

فقالت الأميرة بعد اعتراف الرجل : هذا هو الحق يا سيف ! فاعفو عن حياته ، ثم ليمشِ لأميرته

وملكته ويخبرها بمقتل رجليها ، وأن كنوز الغضبان لسوف يتم إخراجها رغم أنف الجميع .
فركب الرجل الجواد وانطلق هاربا يسابق الريح ، ويحمد الله بأن كتبت له الحياة ، بل فكر بعدم العودة للأميرة غزالة ، وأن يهيم في الأرض ، ويختفي في هذه الدنيا الواسعة ، وتابع الأميران والغلمان المسير بعدما واروا الجثتين ، وأمر سيف الغلامين أن يسوقا الخيل خيل القتيلين نحو بلاد الأكباش.

غمر وعم الفرح قصر الملك مرعي بمجيء أخويه سيف الزمان وجميلة ، وأقبل كل الأمراء والسادة للسلام والترحيب بهم ، وسعد القوم بوجودهم بينهم وزيارتهم ، ولما انتهى الاحتفاء بهم قالت الملكة سُلمى لولدها البكر يوما : كان أفرح يوم عندنا أنا وأبوك يوم مولدك ! آه ! كم فرح جدك خصيب ! وكم ذبح من النوق والخراف ؟! كاد أبوك أن يطير من السعادة والفرح ، لقد كنت الابن البكر الابن الموعود .. كان القوم يخشون أن لا ينجب أبوك لما حدث مع عمك الأصغر سعيد من عدم الانجاب ولـتأخر والدك في الزواج .

وأخذت الملكة تتحدث عن تلك الذكريات ، والأبناء يسمعون كلامها بشغف وحب ، ولما أنهت الملكة حديث المولود الأول والذكريات قالت : وأنت اليوم ترفض الزواج كما علمنا من أختك الحبيبة جميلة ، وها أنت تؤثر عليها لترفض هي الأخرى عروسا باسلا .

فقال ضاحكا: أوجدت عروسا لأختي الجوهرة ؟..إيه من هو الرجل الذي يليق بها ؟! .. إنك يا أمي أنجبت لبؤة مثلك !

فقال مرعي باسما : هي ابنة من يا أخي ؟ أمها الملكة سُلمى ووالدها الملك قيس بن خصيب !
وقالت جميلة مجارية لهم : وأخشى أنا أن لا أصلح للحياة مع الرجال ! فيكون زوجي معي مظلوما..

فقالت الملكة : بل أنت أرق من النسيم ، وأحلى من السكر رغم بسالتك وفروسيتك.. أبوك يحب الفروسية ، وأراد أن يكون الأبناء الذكور والإناث فرسانا وشجاعا .. وهذا لا يعيب المرأة عندنا ؛ فأنا مثلك يا جميلة لقد عشقت الخيل والسيف والرمح والصيد .

فقال الملك مرعي : وهل ينكر أحد شجاعتك يا أماه ؟! فيكفي أنك عشت في وادي السرحان مع عتاة المجرمين - وكأنه تذكر حياة سيف معهم ـ لا تغضب مني يا سيف .

تبسم سيف وقال : أبدا يا ابن أمي وأبي ، صحيح أن رجال الجبل قساة ؛ ولكنهم جبناء يتظاهرون بالشجاعة ، وهم كالضباع عندما تنفرد بفريسة ما ، وإذا وجدوا

ندا هربوا وغدروا ..لم تذكر لنا أمنا الملكة الزوج الذي اختارته لعزيزتنا جميلة؟

فقال الملك : أتدري يا سيف الزمان لو أنك لم تخطف لكنت الآن تجلس مكاني على عرش هذه البلاد ؟! .. فما رأيك أن أخلع نفسي وننصبك ملكا ؟ .

ضحك سيف وقال : هذا قدرك ونصيبك ، ولست حاسدا لك ، وأنا قد طاب لي العيش في بلاد الرايات ، وقد أكون الملك بعد حياة أبي الطويلة– إن شاء الله – هناك .. فلست طامعا بعرش أو ملك يا أبا قيس .

أثنى جميع السامعين على الأمير سيف ومرؤته ، وعانقته أمه مرة أخرى ، فهمس أثناء ذلك في أذنها : أخبرينا عن العروس الذي اخترتيه لأختنا العزيزة ؟

فهمست قائلة : أختك رفضت ، فلا داعي لذكره ولكن ..

فقال : ولكن ماذا ؟!

فقالت : اعلم أن له أختا بديعة الحسن ، وهي مضرب المثل في الحسن والجمال والكمال في بلادنا هذه .

والتفتت إلى الملك وقالت : يا ولدي ! .. ما رأيك بأن نزوج سيف الزمان بالأميرة حسناء بنت الأمير ضارب بن غانم ؟

فقال الملك مرعي مستبشرا : والله إن ذلك من حسن الطالع ! .. فهي الجمال العجيب في بلادنا، فكثير من الشعراء يمدحون جمالها وعذوبتها وأدبها يا سيف ! ولا أظن أن والدها يرفض سيف بن الملك قيس .

فقالت جميلة كأنها معترضة : فهذا سيؤدي إلى زواجي من ابنه .. أنا أرفض ذلك يا سيف ..

فالزوج الذي حدثتني عنه أمي ، هو ولد ضارب بن غانم الأمير براق .. وأنا سأرحل غدا يا سيف الزمان .

فقال الملك: مالك غضبت ؟!..ويحك ، هل نزوجك بالقوة والغصب يا ابنة الملوك ؟! .. اجلسي فلا يليق بك الغضب ..

فقالت جميلة: لأن الرجل إذا رفضتم تزويجه مني ، فلن يقبل بتزويج ابنته الحسناء الشاعرة من أخي .

فقال سيف : يا أختي ! لم أوافق بعد فاهدئي . وعودي للجلوس .

فاحتدت الملكة سُلمى على ابنتها ، وغضبت عليها وتوترت الأمور ، وقالت جميلة غاضبة : سأرحل الآن ، أنا لم آتي هنا للعتاب والزواج والسب ، سأرحل وأعود إلى أبي .. هيا يا سيف وإلا سأنصرف وحدي .

وزاد اللوم والقيل من الأم والحدة ، فتركت جميلة القوم مسرعة إلى الاصطبل ، وهي غاضبة بشدة ، وأمها غاضبة أكثر منها ، ومرعي يعتذر للجميع ولسيف خاصة ، ويحاول تلطيف الثوران ، ويترجى أمه بالهدوء والتعقل ، وأسرجت جميلة الجواد ، وخرجت من القصر ثائرة غير مبالية لغضب القوم ، فصاح الملك بالفرسان أن يمنعوها فقال أحدهم : حذرتنا من اللحاق بها ، وأنها ستصرع كل من يلحق بها .

وأسرع سيف بدوره إلى الاصطبل وأسرج جواده ، وتبع الأميرة فلم يدركها ، واحتار بالدرب الذي سلكته في ذلك الليل البهيم ، وكانت الملكة ما زالت تدعو وتغضب على ابنتها ، فهدأ الملك من انفعالها وغضبها ثانية وقال : سيغضب أبي جدا يا أمي !! .. أنت تعرفين حب أبي لـجميلة ، علينا أن نتدارك الأمر .. فأنت تعيشين بعيدة عنها ، فهي متعلقة بأهل أبيها أكثر منا فأخذت الملكة تبكي وتنشج وتقول : أنا أردت لها الخير ، ولم أزواج بين زواجها وزواج ابن ضارب، كان الكلام مصادفة ألا لعنة الله على ضارب وابنته .. سيغضب أبوك الملك إن جرى لـجميلة شيء .. لقد دللها كثيرا .. قد كبر سنها

فلما لم يدرك سيف أخته عاد للقصر ، وودع أمه وأخاه قائلا : سألحق بها على درب بلاد الرايات الأميرة اشتد غضبها الذي لم أتعود عليه ، فهذه أول مرة أراها ثائرة ، ولا أستطيع أن أسمح لها بالعودة وحدها .

فقالت الأم وهي تعانقه : افعل ما تشاء يا سيف ! وإذا أدركتها أرسل غلامك ليطمئننا عليها وأعلمها أنني غاضب عليها حتى تأتي وتعتذر لي عن هذا الحزن والدموع التي سببتها لي يا ولدي أسرع وراءها إنها مغرورة .

فقال سيف: هوني عليك يا أماه ! سأتدبر القضية إلى اللقاء .

وهبط الحجرة مسرعا ، وكان الغلامان في انتظاره ، فأمرهما باتباعه ، وانطلق سريعا نحو الدرب الذي يسير نحو بلاد الرايات ومع إشراقة الشمس أدرك الأميرة الغاضبة، فأرسل أحد الغلامين ليطمئن أمه وأخاه ، وأنهم سائرون لبلادالرايات .

وسمع الأميرة تقول : يا سيف أمك تريدنا أن نسكن في هذه البلاد .. لا تريد لنا البقاء عند أبينا الملك وزوجات أبينا الملك وأهلينا ، فزواجنا من أهل هذه البلدة يدفعنا للاستقرار في هذه البلاد .

فقال وهو ينظر ما سمعت أذناه : ويلك .. أتقصد أمنا ذلك ؟!

فقالت ونبرة الغضب في صوتها : فلما طمأنت مرعي على الملك وعلى عدم رغبتك به ، أحبت أن تدفعك للبقاء عندها بالزواج .. لقد دار بيننا حديث قبل تلك الجلسة ، فقلت لها بقوة وعناد أنا أحب البقاء عند أبي وقومي وقلت لها أيضا أنا رفضت العيش هنا وأنا طفلة صغيرة ، فهل أوافق وأنا شابة ؟ .. فحاولت عن طريقك ، فهذا ما هيج أعصابي وتوتري .

فأخذ الفارس يهز منكبيه مصدقا ويقول : أشهد أنك تقولين الصدق!.. فقد حدثني مرعي عن حسن البقاء عنده وبجواره ، وكنت أظن أن كلامه من باب المجاملة والملاطفة

موت غزالة

هرب كلب الليل من معسكره في بلاد الملك بهراما ، ومكر بالأميرة غزالة بالاتفاق مع أولاده ، وإنه لم يبعد بعيدا عن المدينة، لقد اختفى في أحد الكهوف والأدغال ، وكان على اتصال بقومه بواسطة غلامه المخلص زهران ، فكان زهران يتنكر وينزل المعسكر على صورة متسول ، فيسمع الأخبار ويعود لسيده في الليل المظلم ، ولما سجنت الملكة بسيف بهراما أولاد كلب الليل ، ثم اتبعتهم بسجن أخيها وبعض السادة من القوم .. فصمم كلب أن يمكر مكرا



كبيرا وعظيما في غزالة ، فقال لخادمه زهران : سأمكر بغزالة مكرا تدوي له هذه البلاد عن بكرة أبيها ! .. فأريدك أن تعلم لي متى تقيم غزالة أو الملك سهرة كبيرة في قصر غزالة ؟ وعندما تعرف ذلك فأخبرني بالموعد ، وسوف ترى ما يفعل سيدك يا زهران ؟!

وحفلات الملك وغزالة كثيرة ، فلما علم عين كلب بحفل وسهرة ستقام في قصر غزالة أخبر سيده كلب الليل بوقتها، ولما سأله عما سيصنع ؟ فقال كلب الليل : أحضر لي ثيابا تشبه ثياب غلمان القصر .. سأذهب وأحضر هذه الحفلة ، وسوف تسمع بمكري يا زهران بابنة أخي اللعينة .

تسلل كلب الليل بزي الغلمان والخدم العاملين بقصر غزالة ، ودخل المدينة مع الظلام الدامس وسار نحو القصر المعروف له ، وطلب من زهران انتظاره مختفيا أمامه ، ولما بدأ ضيوف القصر بالانصراف بعد منتصف الليل ، دخل كلب القصر ، وظنه الحرس السكارى بأنه أحد غلمان القصر خرج لحاجة ثم عاد ، وكان الظلام رغم القناديل والشموع قد اشتد ، دخل كلب الليل مخدع الأميرة غزالة الذي لا يخفى عليه ، واختبأ فيه ، وبعد حين أتى الغلمان والخدم بالملكة وهي تكاد يغمى عليها من كثرة الشراب واللهو ، وقامت الجواري بخلع ثياب الحفلة عنها وإلباسها ملابس النوم ، ومددوها على السرير واستغرقت بنوم عميق وبعد حين قصير أتى الغلمان

والجواري بالملك السكران ، وأرقدوه على سريره بجوار الملكة ، واطفأوا المصابيح والشموع ، ولما سكن القصر وخفت الحركات ، ولم تعد تسمع سوى أنفاس السكارى والمخمورين من كثرة الشراب والسكر انتزع كلب خنجره المشحوذ وأغمده بصدر بهراما ، وغطاه ، وتسلل هاربا من القصر ، وقال لزهران : لقد قتلت بهراما ! لأرى ماذا سيحدث بغزالة اللعينة ؟! لقد ظنت أننا نسينا القتل والسلب !

فهتف الغلام مصعوقا : قتلت الملك ؟!!

فقال : أجل يا زهران ! .. ستشتعل البلاد لهيبا.. خذ حذرك وأنت تأتي إليّ في الجبل .. إياك أن تصل قومنا بضعة أيام ، هم لا يعرفون غضب كلب الليل بن الغضبان إذا غضب .. إنها تريد كنوز أبي .. تخوفني بـزوابع.. فمن أين له أن يصل لكنوز الغضبان ؟! .. كل شيء كان الغضبان يحب أن يفعله بيد غيره إلا المال فقد كان يخبئه بيديه.. المال هو العظمة والقوة يا زهران .. احترس أيها الرفيق وأنت تأتي بالأخبار .

وكما توقع كلب ، لقد قامت الدنيا ولم تقعد عندما اكتشف القوم مصرع مليكهم ، فهاج الناس وماجوا ، واضطربت المدينة لهذه الطعنة الغادرة ، والكل يسأل من هو القاتل ؟! من هو صاحب المصلحة في قتل بهراما ؟! وكانت غزالة واجمة باكية ربما حزينة ، وتقول : ما فعلها إلا عمي كلب ؛ ولكن كيف ؟! .. لقد هرب ولم يجده رجالي وأعواني .. سأقتلك يا كلب قتلة الكلب .

عجز الأمراء عن معرفة القاتل لبهراما ، وقاموا بدفنه وتنصيب أكبر أبنائه ملكا على البلاد والعباد الملك شهراتا ، ولما تمت بيعته ، فكان أول أمر أصدره هو طرد زوجة أبيه غزالة وقومها من البلاد ، واعتبرهم هم السبب وراء مقتل والده رغم عدم وجود دليل على ذلك الاعتبار ، فعادت غزالة تجر أذيال الخيبة إلى معسكر قومها ، ورأت الجنود وهم يضربونهم ويطردونهم شر طردة من البلاد وحيث يقطنون ، فأخذت بالنواح والبكاء ، وأرسلت إلى الملك تترجاه بالعفو عن أخيها شداد ورجال قومها الذين أمرت بسجنهم في حياة أبيه ، وأنهم سيغادرون البلاد كما

يشاء الملك الجديد .. فأخرجهم شهراتا من أجل روح أبيه ، فخرج الجميع هاربين يبحثون عن مكان جديد يأوون إليه ، ولما رأت شدادا قال لها بغضب : هذا ما جنيت على نفسك يا غزالة ؟! أصبحنا مطرودين ولا راعي لنا .. أنت سبب هرب عمنا وملكنا طمعت بالملك ..!

فقالت بحقد وغضب : أخبر الرجال بأنني سأعلن نفسي ملكة عليهم ، ومن يرفض ملكي فليهجرنا ويبتعد عنا .

فضحك ساخرا وقال : أنت تحكمين على نفسك بالموت .. فاحذري الغدر ممن يبايعونك .. فالمعركة قد بدأت .

فقالت : لا .. بل انتهت أيها الرعديد .. وأقسم بالذي خلقك إنه ما قتل الملك إلا عمك الجبان كلب .. ولكن لا أدري كيف دخل القصر ؟!

فقال شداد وهو ينظر للأفق البعيد : أمر وانتهى .. فلنحافظ على أنفسنا .

فقالت بحقدها وغضبها : لن يهدأ لي بال حتى أرى عمك صريعا مجندلا ، كما جعلني أرملة سأجعل بستونة أرملة .

فقال شداد : أين دم وعل الجبل الذي تعاهدنا على تحقيقه ؟!

بايع القوم غزالة الغاضبة ملكة عليهم رغما عن أنفسهم ، ولئن تفرقهم في هذا الظرف ضعف كبير لهم فوق ضعفهم ، ونصبوا خيامهم بين وادي السرحان ومملكة شهراتا بن بهراما .. وكانت هذه الأخبار تصل لكلب عن طريق غلامه المتسول زهران ، ولما استقر قومه وقد عزلوه عن الملك، قال كلب : هل سأبقى طريدة من غزالة الملعونة ؟! .. زاد تعديها عليّ .. لابد من قتلها ما تقول يا زهران الطيب الوفي ؟!

فرد زهران قائلا : لقد تنمرت يا سيدي !.. أصبحت نمرة قاسية الفؤاد ، والأمر لك ، وأنا عبدك وخادمك المخلص يا سيدي الملك .

ثم فكر كلب قليلا وقال : هل ترى أيها الخادم المخلص أن قتلها سيحل مشاكلنا أم ستزداد ؟

فقال زهران الخادم : ليس لها ولد يطالب بالثأر بدمها ، ولكن إخوتها كثر ، وأكثرهم لا يطيقها

ولكن الدم يفجر الدم ..

فقال كلب بحقده وجفائه : ولكنها تمردت وتمادت ، ونصيرها بهراما قد هلك كما تعلم .. عليّ أن ألتقي بكبار قومنا وعشيرتنا سلالة الغضبان وأنصارهم وحلفائهم .

فقال زهران : وعيونها ؟!.. ولا هدف لها إلا رؤيتك ، فلا تغيب خيمة زوجتك عن ناظريها .

فقال كلب : سأجد ثغرة أيها الشيطان وأصل إليها .. الأيام تضعف الأقوياء .. أريد أن أجتمع بابني الكبير يا زهران .. سأكون عند عين الشجرة .. فليكن هناك بعد يومين .. سأجعل منك ساعدي الأيمن يا زهران ! وأزوجك ابنتي زينة الجبل إذا نجحت وعدت ملكا على قومي بدلا من تلك الملعونة .

عند عين الشجرة التقى الأب وابنه وتشاكيا وتباكيا ، ثم قال كلب : يا ولدي قررت قتل غزالة كما قتلت زوجها بهراما !..لا تندهش أنا الذي غدرت به ، وأنا ابن الغضبان وابن الجبل ولو شئت يومها لقتلت تلك النمرة معه ؛ ولكن أحببت أن أعيد لها صوابها وعقلها وأذلها ؛ وها هي مصرة على معاداتي ، وتمردت على الركون إلى مخدع النساء وخدرهن .

فقال الابن : إنها تعرض عليّ نفسها ، تريدني زوجا لها ..

فقال كلب : زوجا لها ؟! يا لها من ماكرة ! عرفت من أين تؤكل الكتف ؟!.. تريد كشف أسرارنا وهل نحن على اتصال ؟ .. لا يا ولدي إنني قاتلها اليوم أو غدا .. أريدك أن تهيئ الرجال لعودتي فإني قادم إليكم قريبا .

استدعت غزالة ابن عمها رشق وقالت له : لم أسمع جوابك يا رشق يا عاشق الصيد ؟! .. ماذا صدت في خرجتك الأخيرة ؟.. ألست أهلا للزواج منك ؟

فقال رشق بخبث : إني حائر أيها الملكة !.. أترضين بي بعدما نكحت ملكا كبيرا ؟

فقالت بغرورها المعروف : نحن أبناء اليوم يا ابن عمي ، وأنا اخترتك دون رجال القبيلة والأقارب.. ليعرف والدك النذل معزتكم عندي ، ولا يـفكر بالعودة إلينا وطلب الملك .

فقال وقد تخابث أكثر : وهل إذا رفضت تبقين على حياتي ؟

فقالت بحدة : لا أظن ذلك .. سأتزوجك يعني سأتزوجك .. وغزالة لا يقال لها لا .. هل سمعت ؟

فقال بتخاذل : أنا رهن إشارتك .. أنا لا أحب أن أموت ، أرضى بأن أكون زوج الملكة .

فقالت ضاحكة : أحسنت يا رشق ! بدأت تفهمني الآن .. أخرج وأعلم أشياخ القوم وأتباعنا أن الزواج ليلة الجمعة .. ولتقم الأفراح والليالي الملاح على شرف الملكة غزالة .

وأخذت تضحك وتقهقه حتى ظن رشق أنها مجنونة !

وقامت الأفراح في معسكر القوم ، ونصب خباء كبير ليكون سكنا للزوجين ، ولما انتهت رقصات القوم .. تقدم رشق وأمسك بيد العروس اليسرى ، ورقصا عدة رقصات، ثم تقدم بها نحو مخدع الزواج ، وعند منتصف الطريق تراجع المحتفلون ، وابتعد الحرس عن الخباء والخيمة الكبيرة ، ولما وصل رشق الخيمة فتح بابها وهتف : ادخلي يا مولاتي الملكة إلى قصرك الجميل ! فقهقهت وهي تدخل وقالت : قصر !! .. ويلك يا رشق ! هذه خيمة جرباء ؛ ولكن للأسف لابد من الحياة فيها .

ولما استقرت بداخلها ، وتخففت من بعض ثيابها قالت : مالك أيها الزوج ؟! .. ما زلت بثياب العرس ؟!

وقبل أن يرد عليها الزوج رشق برز لها كلب الليل وهو مشهر خنجره قائلا هائجا : إني قاتلك يا غزالة !

فخافت من المفاجأة وقالت بصوت خفيض : عماه !!

فصاح : أجل عمك يا غزالة اللعينة !.. تريدين ثروة الغضبان .. فأعلمي قبل أن تموتي أنني أنا الذي قتلت بهراما .. وسأقتلك أيتها الملكة ..

وقبل أن تتكلم أو تصرخ أغمد الخنجر في صدرها ، فشهقت شهقة الموت وماتت ، وخرج فوجد رشقا قد قدم له جوادا،وظهر رجال ملثمون، فصاح فيهم كلب الليل : يا قوم .. استقيظوا من سكركم وخمركم .. أنا كلب الجبل .. كلب الليل .. لقد قتلت غزالة

أيها الجبناء كما قتلت بهراما الملك !

فهرع الناس من منامهم مذعورين مولولين قبل قليل كانوا يسكرون ويمرحون ، فطار السكر وطار المرح ، وسمعوا كلبا يعلن نفسه ملكا عليهم ثانية ، ويحذر أولاد أخيه من الغدر به ، وكان يهتف : غزالة لقد طغت وتجبرت علينا ! وحبست أبناءنا وتسلطت علينا .. وهذا عار كبير في حياتنا وتاريخ الجبل وحياة قومنا !! فأردت إنقاذكم من طغيانها وجبروتها .. هل سمعتم ؟!

فهجم عليه شقيق لغزالة وهو يصيح : كذبت يا غدار .. يا جبان يا هارب !

ورماه بخنجر حاد النصل ، ورغم الظلام فقد أصابه ، فدب الهرج والمرج والقتال بين القوم حتى الصباح ، ولم يمكث كلب إلا أياما ثم هلك ولحق بغزالة غريمته ، ورفض أن يكشف لهم مخبأ الغضبان في جبل الرملي، ودفنوا قتلاهم ، وداووا جرحاهم ، واتفقوا على أن يتفرقوا بين الناس وبين المدن ، ولا يتعرف بعضهم على بعض إذا رآه ، وهكذا اختفى قوم الغضبان ورجاله.

وانتشر خبر مقتل غزالة وكلب بين الناس شرقا وغربا حتى وصل مسامع الأمير سيف وأخته جميلة ، فقال : يا ترى هل أفضى بسر الكنوز لأحد ؟! .. أموال أمي ما زالت في نفسي وبالي يا جميلة.. ما رأيك بأن نسير لوادي السرحان ؟ لـعلنا نصل إلى كنوز الغضبان ونعيد أموال مدينة أبي كبشة وتسكن حينئذ نفسي وروحي .

فكرت جميلة قبل أن تجيب ثم ردت قائلة : ما رأيك بأن نزور عبسان في السبع عدسات ؟ فهو من أصدقاء الغضبان القدامى منذ خمسين سنة قد مضين ، بل بدآ معا .. فلعل عنده علما بمدفن الكنوز .

ضرب الفارس جبهته لفطنة أخته وقال : أحسنت يا جميلتي !.. أجل لابد من لقاء عبسان وليمونة ، فهم من أوائل من سكن في وادي السرحان .

كان الملك قيس لا يخشى على ولديه جميلة وسيف من قطاع السبل واللصوص ،

فسيف رُبي في الجبال وبين اللصوص ، وجميلة من خير النساء التي ركبت الخيل في بلادالرايات

وحياتها سنة في الصحراء زاد من ثقته فيها ، فلذلك لما طلبا زيارة عبسان للسؤال عن كنوز الغضبان أذن لهما بالرحلة بكل أريحية.. وكان الأميران سعيدين برفقة وصحبة بعضهما البعض كان سيف يحب أخته جميلة حبا كبيرا ، ويسر بالجلوس معها والكلام معها ، وهي أيضا تبادله هذه العاطفة النبيلة حتى أن الذي لا يجد جميلة في حجرتها سيجدها بالتأكيد في حجرة سيف والعكس صحيح .. وأخذوا هذه المرة معهم في رحلتهم غلاما واحدا ؛ ليقوم على خدمتهما ، ومشيا في اتجاه بلاد السبع عدسات ، وقد علما أن الرحلة تحتاج إلى سبعة أو ثمانية أيام .. واجتازوا دروبا مأهولة تسير عليها القوافل التجارية ، ودروبا مهجورة لقطع المسافات ، وكانا سعيدين بهذه الرحلة ، وكانت الأميرة مسرورة بحكايات سيف في الجبل، وقصص السطو والنهب وقطع الطريق ، وكانا أحيانا يدخلان قرى الفلاحين للتزود بالماء والطعام ، ثم يتابعون المسير نحو السبع عدسات ، ذات مساء وقبل الغروب بساعات انحرفوا نحو قرية وبساتين ظهرت لهم .. فقال سيف : فلنرقد الليلة قرب هذه البساتين .. يا عبشلي هات لنا الطعام .



فأشعل عبشلي الخادم موقد النار وارتفع الدخان ، وكان سيف قد صاد أثناء السير عدة أرانب بالسهام ، وملأت رائحة الشواء المكان وبينما هم مسرورون في الأكل والكلام ظهر أمامهم خيالة ثلاث ، وعدد من العبيد ، وهم يحملون العصي والفؤوس وأدوات الحرث ، ثم اقترب منهم الخيالة الثلاث ، ولم يظهر أبطال القصة أي خوف أو قلق بل قال سيف: انزلوا إلى مائدة الطعام أيها الأسياد ..

فنظر الرجال الثلاثة بعضهم إلى بعض بقلق ، وقال أحدهم : ماذا تفعلون قرب البستان ؟!

فقال سيف : كما ترون نشوي هذه الأرانب ونحاول بلعها.. وأنتم من أنتم ؟.. أأصحاب هذه البساتين والثمار؟.. بل هذه القرية لأي المدن تابعة ؟!

فقال آخر : بل من أنتم أيها السادة ؟

فقال سيف : عابرو سبيل.

فقال الرجل الأول : يبدو عليكم أثر النعمة ، فثيابكم جميلة وثمينة رغم التعب الظاهر عليكم ونحن من رجال صاحب هذه البساتين والجنات ، وهو أحد الأمراء .. وقد ظن هؤلاء العبيد أن حريقا شب في البستان ، وأن لصوصا يفعلون ذلك فهرعنا إليكم .. ولابد أن تأتوا معنا ليراكم الأمير قبل المغادرة .

فقالت جميلة وقد تركت الطعام : ما ذكرتم لنا اسم أميركم ؟

فقال أحدهم : عندما ترونه سيذكر لكم اسمه .

فقال سيف : الحق أيها الرجال نحن نريد الآن الاستراحة والنوم ، ولا حاجة لنا برؤية الأمير، وبلغوه السلام والتحية عنا، واعتذروا لنا عن هذه المقابلة واللقاء .

ولكنهم قبل أن يسمعوا الجواب سمعوا فتاة حسناء ظهرت على ظهر حصان أشهب تقول لهم : سلام عليكم أيها القوم .. من الضيوف يا شمو ؟!

أدى الرجال الثلاثة والعبيد التحية للأميرة وتمتموا : الأميرة !.. يا مرحبا بكِ !

وسمع الرجال سيف وأخته يرحبون بالأميرة الشابة أيضا .. كانت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها كما يبدو للناظر ، ذات جمال بديع وشعر طويل وعيون واسعة ، فعادت الأميرة تسأل: من هؤلاء القوم يا شمو؟

فقال شمو : أغراب يا مولاتي !.. عابرو سبيل جلسوا يستريحون هنا ولشواء الصيد كما يظهر وقد ظن الخدم والعبيد أنهم يحرقون البستان .

فقالت الأميرة : نحن نرحب بالضيوف ، والنوم في القصر خير من النوم في العراء وعلى التراب يا سادة .. وأبي رجل كريم ! ويحب إكرام الغرباء ، وسوف يسر برؤيتكم وضيافتكم

أثنى سيف على الأميرة ووالدها وقال : بوركت أنت وأبوك ! ولكن يا أخية .. نحن سنستريح ساعة أو ساعتين ثم نتابع السير إلى بلاد السبع عدسات ..

فقالت الأميرة مصممة على ضيافتهم : ولا أظن أن أبي سيؤخركم .

فقالت الأميرة جميلة : يا أختاه ! جزاك الله خيرا ، نحن لا نرغب بالنوم داخل القصر بل سنتابع

السير .. هيا يا أمير سيف .

فقالت الأميرة مستغربة : أمير سيف ؟!

فقال سيف باسما : نعم ، نحن أمراء مثلك أيتها الأميرة .. فهذه الأميرة جميلة بنت الملك قيس وأنا أخوها سيف الزمان ، ولولا زلة لسان أختي ما أحببت قول ذلك ..

ضحكت الأميرة وقالت : هذه حيلة ساذجة للفرار منا .. !

فظهر الغضب على وجه سيف وهو يقول : نفر منكم ! وماذا فعلنا لنفر منكم ؟!.. بل ويحك بقولك حيلة ساذجة ! ولماذا سنحتال عليك ؟! أتظنين أننا خائفون منك ومن رجالك ؟ .

فصاح شمو مظهرا حمية وقال : تأدب أيها الفارس .

واستل سيفه في وجوههم ، فكان سيفسيف أسرع منه ، وأطار السيف من يده فورا ، وقد احتقن وجه غضبا لتصرف الرجل ، ورفعه السيف في وجوههم

وقال : انصرفوا .. خذي رجالك أيتها الأميرة وانصرفوا ..

فقالت الأميرة متحدية: لا .. لقد أهنتنا أيها الغاضب..!!

فتدخلت جميلة قائلة: يا أميرة .. حرام عليك أن تجني على هؤلاء المساكين .

فقالت الأميرة بغضب : ولماذا هم يعملون عندنا ؟! .. إذا لم يستطيعوا أسركم .. هيا اهجموا أيها الرجال ..

بدأت معركة ، كل رجل نخزة في رأس السيف فيسقط مغمى عليه أو جريحا ، وخلال دقائق كانت الأميرة وحدها ، ورجالها الثلاثة صرعى على الأرض ، وعبيدها بين أنين وبكاء وألم ، فسقطت عن الجواد ذاهلة من فروسية الثلاثة ، وسحبت سيفها من الغمد ، وقالت بزعيق وحقد : فارس لفارس !

فقالت جميلة باسمة : دعها لي يا سيف .

لم تصمد الأميرة الغاضبة أمام جميلة سوى بضع حركات ، وفقدت سيفها ، فأخذت تبكي وتصيح وتقول : أنا القوية الفارسة أخسر سيفي بلحظات إنكم شياطين !

فقالت جميلة وهي تضع قدمها في ركاب الجواد لتركبه : هيا يا سيف ! .. وداعا أيها الصبية نحن سائرون لبلاد السبع عدسات ؛ فإن أحببت اللحاق بنا فاتبعينا يا أميرة .. ولكن لم نعرف اسمك بعد ولا اسم أبيك ؟!

فقالت من بين دموعها وغيظها : أبي لن يغفر لكم ذلك .. أنا الأميرة قمر بنت ماجد .

فردد الأخوان معا : ماجد !!

فهذا الاسم له وقع على أسماعهما ، فنظر الأخوان في عيني بعضهما ، وقالا : أمعقول أن يكون هنا ؟!

وتوقفت جميلة عن اعتلاء صهوة الجواد وقالت : من أي البلاد أنتم ؟!

فقالت الأميرة وهي تكفكف دموعها : أتعرفان أبي ؟!



قمر بنت ماجد

لما سمع الأمير ماجد صاحب البساتين والحدائق بالمعركة ، أتى مسرعا ومعه باقي رجال المزرعة وقصت عليه الأميرة قمر قصة المعركة فاستصعب الأمر وضاق بالحادثة، وقد خشي من معركة جديدة ، وكان يستمع لابنته والأمراء على خيولهم صامتين ينتظرون ردة فعله وينظرون إلى الأمير ماجد ، ويرون أن سنه ليس من جيل أبيها الملك وأمها الملكة سُلمى ، يبدو أنه في الثلاثين سنة ، فقال سيف لما خيم الصمت : أيها الأمير !.. نحن لا نحب الاعتذار ، ولا الاعتداء .. فقد اتهمتنا ابنتك بالحيلة والكذب عندما ذكرنا لها اسم والدنا وأسمائنا ، وأصر رجالك على قتالنا ، فما كان أمامنا إلا الدفاع عن أنفسنا .

فقال الأمير ماجد: وهل أنتم صدقا وحقا من أبناء الملك قيس بن خصيب ملك بلاد الرايات ؟!

فقال سيف : ولماذا نكذب ؟! .. بل قلنا لهم أن وجهتنا مدينة السبع عدسات ليزدادوا اطمئنانا

فقال الأمير : وقد تغلبتم على كل هؤلاء العبيد ؟!

فقال سيف : نحن حذرنا الأميرة الصغيرة من ذلك قبل المعركة ؛ ولكننا لم نقتل أحدا منهم .. إنما هو جرح بسيط ليكف عن القتال .

فقال الأمير فجأة : أتعلمون أنني غريمكم ؟!.. وكاره لكم وحاقد عليكم وقد ساقتكم الأقدار إلينا .

فقال سيف وقد استغرب لتغير لهجة الأمير الهادئة : ولمَ أيها الأمير ؟! فما الذي بيننا وبينك ؟! وهذه أول مرة نراك فيها !

فعاد ماجد يقول : ولكني رغم ذلك خائف من قتلكم ، فأبي حدثني عن الملك قيس وزوجته الملكة سُلمى وجبل السرحان ..

فقال سيف دهشا ومتحديا: كيف ذلك ؟! ومن هو أبوك ؟! .. ولماذا تخشى أبانا؟! ومن سيعلمه بقتلك لنا أيها الأمير؟؟ فما نحن إلا ثلاثة ؛ فإذا قتلتنا ودفنتنا تحت الثرى .. فلا أظن أن أحدا

سيعلم بذلك إلا إذا خانك أحد رجالك ، وأحب أن يرث عنك هذه المزارع والبساتين ، فيذهب ويخبر الملك قيس بذلك القتل .

تنهد الأمير ماجد وهو يتطلع برجاله وللفكرة التي أوحى لهم بها ، فقال الأمير ماجد : نحن بيننا ثأر قديم ! .. وصدقوني أنني لا أحب حمله لو رضيتم بالمسالمة والمصافحة والثقة بيننا ، بل أهبك هذه الفتاة عروسا لك .

دهشت الأميرة قمر والأميرة جميلةوالسامعون لهذا العرض الغريب ، فقال سيف : رغم غرابة ما أسمع فإني أصدقك !.. وسوف أسألك سؤالين ؛ فإن صدقتني سأدخل معك القصر وأنا مطمئن .

فقال الأمير ماجد : إنك ذكي ! ولابد أنك تعرف الأسرار .

فقال سيف : هل عاش أبوك بوادي السرحان ؟

فقال الأمير : أبي اسمه ماجد كاسمي ، وله رفاق بوادي السرحان .. والسؤال الثاني ؟

فقال سيف : والدك من بلاد أبي كبشة ؟!

فقال ماجد : أجل !.. هو من بلاد أبي كبشة وقد جار عليه الزمان !

فقال سيف : أحيٌ والدك ؟!

فقال الأمير : لا .. ولكنه حملني ثأرا وحقدا على الملك قيس وأولاده ! .. وها أنتم بأرجلكم أتيتم إلينا .. فسبحان الخلاق العليم !

فقال سيف : ما دام قد مات أبوك ، فلا داعي لحمل هذا الثأر .. ولنتصالح .. والآن تطيب النفس للدخول إلى قصرك .. لتعلم أننا لا نحقد على رجل لم نعاصره

كانت جميلة مدركة لكل ما يتكلم به الرجلان .. فهذا الأمير ابن الأمير ماجد ابن خال أمهم الملكة سُلمى .. فأمر الأمير ماجد بنقل الجرحى الذين لا يستطيعون المشي إلى القصر والعناية بهم ، وتصافح مع الأمير سيف وحياجميلة وخادمها وقال سيف : أنا أعرف أباك .. لقد عشت في الجبل ما مدته العشرون سنة ، وكان يومذاك اسمي الأمير زوابع سيد اللصوص وأميرهم

فهتف ماجد قائلا : أوه ، إن هذا لشيء عجاب ! والذي نفسي بيده إن أبي حدثنا عنك، وإن زوابع هو ربيب الغضبان ، بل كان أبي يقول لي ولأمي لولا أن الغضبان غضبه الموت لظننت أن زوابع هذا ابن الملكة سُلمى المفقود ، للشبه الكبير كما بدا لأبي بينك وبين أمك الملكة فسر سيف وجميلة لهذا الكلام فقال سيف: أبوك قال ذلك؟!

فقال الأمير : أجل .

فقال سيف : الحمد لله أنه لم يقلها أمامه وإلا لقتله فعلا .. فأنا ربيب الملك الغضبان سيد وادي السرحان ، وقد رأيت والدك الأمير وهو برفقة أبي الليل في وادي السرحان ، وأنا عرفت أهلي منذ عهد قريب أيها الأمير .

فقال الأمير : أبو الليل هو صديق والدي ، وسأقص عليك بعد العشاء قصة أبي ماجد منذ نجا من معركة أبي كبشة ..

احتفى الأميرماجد بالضيوف ، وأمر بإعداد وليمة كبيرة للضيوف ولأهل المزرعة جميعهم ولما انتهوا من الطعام جلسوا في ديوان واسع لسماع قصة الأمير ماجد الهارب من معركة إعادة الملك لسلالة الملك جعد بن همام .

قال الأمير بعدما روى قصة خطف والده ابنة عمته والهرب بها لرجال الجبل : ولما بدأت آثار الهزيمة على رجال العشيرة ، ورأى أن القوم يستعدون للاستسلام أخذ أمواله ومجوهراته وزوجه وابنيه ، وأمر أحد غلمانه المخلصين له في انتظاره خارج أسوار المدينة في مكان معروف لهما ، ولما بدأت المعركة الأخيرة ورأى أن جند أبيه أخذ بالاستسلام وإلقاء السلاح ـ وكان متحسبا للهزيمة ـ فر هاربا ومبتعدا عن المدينة الساقطة لما بينه وبين الأمير قيس والأميرة سُلمى من أحقاد وثارات ، ولما التقى بغلامه وزوجه ساروا هاربين حتى أتوا مدينة الخان ، فسكنا منزلا مستأجرا وتظاهر أنه غريب ضاقت به بلاده ، وسمى نفسه محمود بن ناجي وعمل بالتجارة فترة من الزمن هلكت فيها أمي ، ثم تعرف على ابنة أحد التجار الكبار فتزوجها فانجبت له أختي ماجدة ، ثم لم تعد تنجب ، ثم مات شقيقي الأصغر قبل البلوغ ، وخلال عمل والدي

بالتجارة كان يتردد على جبل السرحان ، وكان طامعا بالانتقام والثأر من الملكة سُلمى ؛ ولكن لم يتيسر له ذلك بسبب سطوة الغضبان وجبروته ، ولما هلك أبو الليل ، ولم يتمكن من الانتقام ولم يصغ الغضبان لانتقامه عاد واستقر في المدينة ، وقد يئس من انتقامه ، وكنا نحن نظن غيابه عنا يا سيف ! للتجارة ، فلما وصل حد اليأس أتى هذه القرية واشترى هذه البساتين من ورثة أحد التجار ، وأنزلنا فيها ، وبعد حين من الزمن اعترف لنا بقصته وحبه للأميرة سُلمى ابنة عمته .. ثم ظهر الأمير قيس ابن الملك خصيب في حياتهم ، ووافق والدها الملك على اقترانها بـ قيس ، فاضطر للمكر بها ، وأخرجها بالحيلة إلى وادي السرحان عند أصحابه من رجال الجبل .. ثم عرف شيطان اللصوص الغضبان بوجود الأميرة في الجبل فاستولى عليها ، وأرادها لنفسه ، ثم ظهر الأمير قيس و صقر والباقي لابد أنكم تعرفونه .. ورغم الصورة القاسية التي التقينا فيها ؛ فأنا سعيد بوجودكم ، ونحن أقارب رغم العداوات بين والدينا ، ورغم الحقد والثأر الذي أوصاني به قبل أن يموت ، لم أهتم بوصيته ، ولم أسع في يوم من الأيام للشروع في تنفيذها .. فأنا ضعيف وعاجز عن ذلك ، ولا أريده ، ولا مطمع لنا في الملك والحكم ، ونحن سعيدون بالحياة في هذه القرية الهادئة .

وقص سيف قصته على مسامع الأمير ماجد وابنته قمر وبناته وأولاده ، مما أدهش السامعين وأثار دهشتهم حتى قالت الأميرة قمر : ابن الملك يعيش بين الوحوش أكثر من ربع قرن .. يا الله !!

فقال الأمير ماجد : كان انتقام الغضبان من والديك انتقاما رهيبا وقاتلا ..الآن فهمت لماذا كانوا يرفضون تحريض أبي للانتقام من الملك قيس والملكة زوجته؟! .. فهو قد انتقم منهم ، ولا يريد فضح سره خوفا من معرفة الملك قيس بذلك ، فيدمر الجبل والوادي على أصحابه وساكنيه والآن كيف عرفت أهلك ؟

فعاد سيف يقول : اللعين كان يريد مني أنا أن انتقم من والديّ ، حرضني على سرقة جواد الملك قيس بطريق ذكية بايحاء ، ودفعني لسرقة أموال أخي الملك مرعي ملك بلاد الأكباش

كبرت وكبر التمرد والإجرام والمغامرة في نفسي .. فسرقت فرس الملك قيس ورد ابنة الفرس المشهورة دموع ونجحت في ذلك ، ثم عرف الملك قيس بعد حين ذلك بواسطة أحد رجاله الشجعان الذي دخل علينا الجبل ، ومكث بيننا سنة ، فعرف الكثير من أسرارنا الخفية ، فصمم على غزونا ، ولكنه قبل الغزو أحب أن يحل القضية سلما ، فأرسل رسالة يطلب فيها الجواد والمال الذي سرقناه من خزائن الملك مرعي .

ثم تحدث عن محاولة خطف أبيه ، وكيف ركبت الأميرة الجواد الهائج ، ونجا الملك من الغدر ، ثم كيف اجتمعت الأميرة بـعبسان أحد رجال الغضبان القدامى ، واستمر الحديث للصباح ، فاستمع الأمير ماجد القصة ، وتعجب من شجاعة الأميرين ، ولما استيقظ الجميع من النوم كانت الأميرة قمر عاشقة ومحبة للفارس الشجاع ، وتتمنى أن يقبل بها زوجة لسماعها رفضه كثيرا من الأميرات في بلاده وبلاد أمه الملكة ، ولما تحدث والدها ثانية بذلك قال سيف : إنني شاكر لك ذلك الكرم ، ونأسف للعراك الذي جرى بيننا وبين رجالك وسيصفح الملك قيس عنكم ، ولا أظن أن أبي يحقد عليكم ، ولا حتى على والدك ماجد ، فإن أبي يعتبر ذلك ماض وقد انتهى ، فـعبسان الذي ساعد الغضبان في خطفي صغيرا عفا عنه والدي وصفح وأكرمه .. وأما بالنسبة للزواج من كريمتكم أيها الأمير الشهم فهذا يقرره الملك .. وتأكد أني سعيد بالزواج من هذه الأميرة الجميلة التي كادت أن تجن عندما هزمتها جميلة ، فأظن الآن أنه قد ذهب إحن قلبها علينا ، وإن كان هذا الزواج قد يغيظ أمي ؛ ولكنك كما قلت نحن بيننا صلة رحم وقرابة ، والصفح والعفو سيد الأحكام .. فلما أنتهي من قضية كنوز الغضبان ، ونعيد أموال خزائن أخي الملك مرعي التي سرقتها أيام وادي السرحان اللعين ، سأرسل لك هذا الغلام الطيب أو ربما غيره ؛ لتزور الملك قيس ، وتلمس عفوه وتسامحه ، وإن شاء الله نعود أهلا وخلان يا سيدي الأمير .. أنظر إليّ أين كنت قبل سنة ؟ وأين أنا اليوم ؟!

فقال الأمير ماجد بفرح : نحن في انتظار خطابك وغلامك أيها الفارس والأخ النبيل ! لقد كان والدنا – رحمه الله – يحدثنا عن شجاعتك رغم صغرك ، قبل أن يهجر وادي السرحان أو قل

قلّ تردده عليه.. فحيهلا .

وأمضيا ثلاثة أيام في ضيافته، ثم ودعوه وجميلة تقول لأخيها: لقد مات إذن ماجدعدو والديَّ وهل أنت مقتنع ومسرور بالزواج من تلك الأميرة المغرورة ؟!

فضحك سيف وقال : هي حقا مغرورة ! ولكنها فاتنة ، وما زالت طفلة يا أخت الملوك .. وتابع الحديث فقال : والزواج والمصاهرات – يا أميرتي– من الأشياء التي تزيل الأحقاد والضغائن ، ثم أن عشيرتهم قد تفرقت في المدن والقبائل.. ولا خطر على ملك أخينا مرعي منهم ، بل ربما كان هذا الاقتران منسيا الأحقاد والبغض والتفكير بإعادة الملك ثانية وثالثة ..

عندما شاهد عبسان الأميرين أمامه كاد يطير من الفرح والسعادة ؛ فكأنه كان على موعد معهم فالتزم الأمير سيف وعانقه ، وقبل الأميرة من رأسها وقال متحسرا : إيه يا جميلة يا غالية لقد كانت أيام الصحراء حلوة !.. لقد كانت تلك الأيام أيام سعادة ومرح .. يا أهلا ويا مرحبا بكم في بيت عبسان .

وعانقت ليمونة الأخوين عناق المشتاق والوفاء ، وصنعت لهما مائدة جميلة ، قرت بها عيون الضيوف وقال لهما عبسان: لقد كنت أفكر بالرحيل إليكم ، اسألوا ليمونة لقد خيل لي يا جميلة إنك ابنتي ومن صلبي ، دائما أنا وليمونة في ذكركم أيها الأحباب .

وقضى الأخوان ثلاثة أيام في ضيافة عبسان ، وتفرجا على مدينة السبع عدسات ، وقدمهما عبسان للوزير الأكبر ، فقد كان له عونا في مطاردة اللصوص ورجال الليل ، وأكد لهم توبته وحرصه على أمن المدينة ، وكان الملك قيس قد تشفع له عند الملك ، وقبل الملك شفاعته ومنحه بيتا جميلا ، وقام الوزير بإخبار الملك بزيارة ولديّ الملك قيس ، فاستقبلهما هو الآخر ، ورحب بهما وأهدى لهما ولوالدهما الهدايا.. ولما حدث عن شجاعة سيف قال له الملك : يا سيف بن قيس أريد أن أراك تبارز فرساننا ؟!

فابتسم سيف وقال : يا مولاي الملك .. أخشى أن أوغر صدرك ؛ فأنا ابن الجبل حيث القسوة والقوة الفردية ، وربيب الغضبان المشهور لدى الناس ..

فأقسم الملك على أن يرى مبارزة سيف لفرسانه ، فاختار الملك سبعة فرسان ، ونزل القوم للميدان ، وطلبت الأميرة جميلة من أخيها سيف أن يأذن لها بالمشاركة بالمبارزة ، ووافق الملك على ذلك وقد أوصى ألا يؤذوهما ، فارس لفارس ، فتفوق سيف على أربعة ، وجميلة على ثلاثة أمام دهشة الحاضرين ، فطلب الملك أن يهجم السبعة على الفارسين ، ومرة أخرى أثبت سيف وجميلة شدتهما وبأسهما .. فنزل الملك نفسه الميدان وقلد الأمير سيف قلادة عظيمة في بلاده ، ومثلها لـجميلة ، وأثنى على شجاعتهما وقوة قلبهما ، وقال ضاحكا : ما رأيكما أن تتبارزا ؟!

فضحكا وقال سيف: منذ التقينا ، ونحن نتدرب ونتمرن معا .. فالسيف يحتاج لعضل قوي ، وقلب أقوى أيها الملك.. وأرجو أن تقبل اعتذارنا لغلبتنا فرسانك الأشداء ، فهم نـعم الفرسان ولكن لابد من غالب ومغلوب .

وأقاما في ضيافة الملك ثلاثة أيام أخرى ، واتفقا على أن يذهب بصحبتهما عبسان إلى وادي السرحان للمحاولة وإخراج كنوز الغضبان وإعادة أموال الملك مرعي ، فأوصى عبسان عمران على زوجته ليمونة حتى تنقضي هذه المهمة الكبيرة ، وانطلق الأربعة نحو وادي السرحان في جبل ضراب .

قطعوا القفار والبراري والوديان وعند عين ماء أمر سيف الزمان بنصب الخيام ، فأناخ عبسان البعير الذي اشتراه من عمران ، وقاموا بنصب الخيمتين خيمة الأميرة وخيمة الرجال ، واستحم الرجال بالعين ، وقال سيف: هذا الوادي يكثر فيه الظباء يا عبسان ! قد ترددنا عليه أيام الجبل فلنقض فيه بضعة أيام نستمع بأكل الغزلان .. أليس هذا جميلا يا جميلة ؟!

فقالت الأميرة مبتسمة ومشجعة للفكرة : بالتأكيد .. فأكل لحم الظباء من اللحوم الطيبة في البراري .. والحياة في البراري جميلة وممتـعة !!

وفي الصباح ترك القوم الغلام الخادم عند الخيم ، وانطلق الأمراء وعبسان العجوز حيث تتجمع الظباء والوعول عند الغدران والأشجار الكثيفة ، وبالفعل ما كادوا يقتربون من سيل ماء عميق ومتسع حتى لمحوا الظباء الحسناء وحولها الكلاب والثعالب وبعض الطيور ترصد بعضها

بعضا .. فانطلقوا نحوها .. ولما شعرت بهم الحيوانات فرت مسرعة ، ولم تطل المطاردة فقد تمكن الثلاثة من محاصرة أحد الغزلان الصغيرة ، فسقط بسهم أحدهم فأسرعوا نحوه ، وقبل أن يدركوه ظهرت لهم لبوءة كامنة هناك ، ولولا سرعة سيف لانقضت على عبسان أقربهم للصيد ، فأصاب سهم سيف اللبوءة ، فزأرت وأبتعدت وهي تملأ المكان صياحا وزئيرا فقال عبسان : لولا سهمك لقتلتني اللعينة !

فقال سيف : لقد لمحتها تخرج فجأة عندما سقط الغزال صريعا ، كنت أظن أنها ستهرب عندما ترانا نركض نحو الصيد .. ولكنها اندفعت نحوك فما كان أمامي إلا رميها بسرعة ..

وأخذوا الغزال الميت وعادوا إلى الخيام، فلم يجدوا الغلام في انتظارهم ، ولا الجمل ، فقلق سيف وأخذ ينظر في الأرض ، ثم قال : لقد كان هنا رجال !.. اركبوا خيولكم .. إنهم ساروا بهذا الاتجاه – وأشار بيده لمكان سيرهم – وساقوا الجمل معهم فهذه آثار خفه .

وبعد ركض سريع سمعوا صوت رغاء ناقة، ولما وصلوا إليها لم يجدوا عندها أحدا ، فقال سيف : يبدو أنهم أحسوا بنا ، فنحن قريبون منهم .

وأسرعوا مجددا فلمحوا عددا من الرجال على خيولهم مسرعين وهاربين ، فصاح سيف : توقفوا أيها الجبناء ! .. توقفوا .

فتركوا الخادم وأسرعوا هربا؛ ولكن سيف لم يرض بذلك ، بل ظل يركض وراءهم ، ويتبعه عبسان ، وقد نزلت جميلة لتهتم بالخادم الجريح كما ظهر لها ، وأدركهم سيف وأشهر الجميع سيوفهم ، وقبل أن تبدأ المعركة قال الأمير وهو يخفف من ركض الحصان ويدور حول نفسه : من الرجال ؟!

ثم دار حولهم وسمع أحدهم يقول : لصوص .. رجال ليل .. قتلة .. سفاحون !

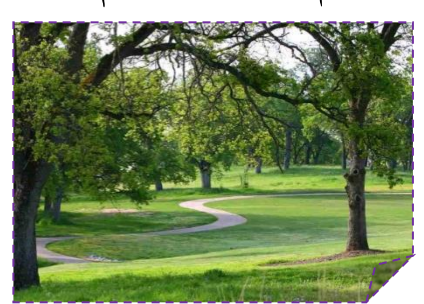
فقال سيف وهو مشهر سيفه نحو صدر أحدهم : ألم يخبركم الغلام بأنه غلام سيف بن الملك قيس؟!

فقال الرجل : بلى قد قال .. ولكننا طمعنا بالناقة وببيع المملوك .

فقال سيف : فأنتم لم تخشوا سيفي إذن ، من يريد منكم الموت أولا .

وأشار الرجل لرجاله بالهجوم.. فكان سيف يهاجم اللصوص ويدافع عن عبسان ، لا يريد أن يمس بأذى من أجل ليمونة ، وبعد قليل أقبلت الأميرة الشجاعة ، فهوى اللصوص بين جريح وقتيل ، وانصرف الأمراء وحملوا الغلام الجريح بذراعه إلى الخيمة ، فقد قام أحدهم بطعنه بذراعه ظانا بذلك إعاقة مطارديه عن المطاردة وإنشغالهم به ومعالجته، ولما وصلوا الخيمة وجدوا الوحوش قد نهشت الغزال ولم يبق منه إلا القليل ، فرماه سيف في الماء وهو يقول : لا نصيب لنا بأكل الغزلان اليوم .. ولكن لن أخرج من هذه الوادي قبل صيد غزال آخر!

وقاموا بمتابعة وإكمال إسعاف الغلام ، وصنعوا لأنفسهم طعاما مما يحملون من القديد .



دفائن الغضبان

سبحان الله ! اللصوص يقتلون ويسرقون ويجمعون الأموال ثم يهلكون ، فيأخذ هذه الذخائر والأموال غيرهم ، لما دخل الأمير سيف الزمان وأخته جميلة قلعة الجبل عمت فيها الأفراح ، وابتهج القوم بمشاهدة أولاد مليكهم بينهم ، وكان الأمير صقر قائد القلعة قد طاب له المقام فيها منذ بدأت الحملة منذ سنوات ، ومنذ بداية الإنشاء ، فبعد الترحيب الحار قال لهم : هذه المرة الثانية التي تزورنا الأميرة البطلة.. ففي المرة السابقة أتتنا الأميرة بسيف الفارس وهذه المرة ماذا تحمل لنا ؟!

فضحكت الأميرة وقالت : إنني مسرورة برؤياك يا عماه!..وتهديك السلام الأميرة عبلة والأهل كلهم ، وهم مشتاقون لرؤيتكم وينتظرون عودتكم .

فقال صقر : لقد أشرف البناء على الانتهاء ، فلم يبق سوى تضخيم الأسوار والأبراج وتأمين الممرات والطريق بين هذه القلعة والقلعة الأخرى .. لعلكم مررتم بها ورأيتم الأمير خزون .

فقال سيف : للأسف لا .. لم تكن طريقنا من جهتها ..جئنا من جهة السبع عدسات .. نحن كما قلت وأشرت قادمون لمهمة ، وهي تتلخص بإخراج كنوز الغضبان الدفينة في هذا الجبل في كهف من كهوف هذه الجبال .. وهذا عبسان كان أحد المقربين من الغضبان منذ خمسين سنة في هذه الجبال والوديان .

وحدثه عن عبسان بعض الحديث ، فقال الأمير صقر: على الرحب والسعة ، وإن قام رجالنا بإخراج الكثير من الدفائن .. بعضها بالتوفيق الإلهي ، وبعضها بسقطات المتسللين والمتنكرين فكل زعيم كان له مدفن خاص .

فقال عبسان: لأننا يا سيدي القائد عندما نهرب لا نأخذ شيئا ؛ لاعتقادنا أننا عائدون قريبا ولم يخطر على بالنا بناء مثل هذه القلعة في هذا المكان البعيد عن المدن العظام .. والحق أن الغضبان كان يترك كل شيء لرجاله ومساعديه إلا المال فكان يهتم به بنفسه ووحده ، ولقد قتل أكثر من ثلاثة أو أربعة صدفهم أثناء سيره لإخفاء المال ورغم قربي الشديد منه في السنوات الخوالي ، فقد

كنت من أزهد الناس في المال ، ولم أفكر يوما بمعرفة مدفن ومخبأ أموال الملك الغضبان .. ولكن لما أطلعني الأمير سيف على الغاية من زيارته لي في السبع عدسات ، فقلت لهم سأبذل قصارى جهدي في الوصول إلى مخبئه ، ولن نعجز في الوصول إليه .. فهو لم يكن أذكى وأفطن منا .

فقال صقر : صدقت .. فمرحبا بكم جميعا !.. وسوف أسمح لكم برؤية الأموال التي تمكنّا من الاستيلاء عليها في هذه المغارات والأنفاق ، لعل أموال الغضبان بينها.. ففيها كثير من المجوهرات والعقود والأساور والسيوف والخلاخيل والخواتيم ..

فقال سيف : لا بأس ، وإن كنت أظن أنكم لم تصلوا بعد لمدفن الغضبان .. فالشخص الوحيد الذي كان يعرف سره هو ابنه كلب الليل ؛ ولكنه قتل وهلك كما تعلمون وسمعتم .

فقال عبسان : وأنا أظن ذلك .. نحن لما نزلنا وأتينا وادي السرحان منذ سنوات وعقود كانت كل مجموعة من الرجال يُكونون عصابة .. وكنا زعماء كثر ، وكلنا أصحاب جرائم وجنايات اجتمعنا في هذا المكان البعيد عن المدن ، ومع الزمن قويت شوكة عصابتنا بهلاك كثير من الزعماء إما غدرا من رجالهم أو من حماة القوافل ، فأحيانا يتغلب حرس القوافل على اللصوص فبدأت عصابة الغضبان تكبر وتتضخم ، ثم سمح لنا بالزواج فدخلت النساء حياتنا ، ولقد كان كل زعيم مجموعة يموت يستولي الغضبان على أمواله وثروته ، وربما انضم بعض رجاله لعصابة الغضبان ؛ ولكن بعض الزعماء كانوا يصرون على البقاء وحدهم ؛ ولكنهم يخشون غدر الغضبان ورويدا رويدا أعلن نفسه سيدا كبيرا ومطاعا في جبل السرحان ووادي السرحان ، وقويت شوكته فكان يفرض على كل عصابة أتاوة تدفع له اتقاء شره ، وهذه الأتاوات تذهب لصندوق الغضبان وحده ، أما مغامرات عصابته فقد كان كريما معهم عندما تؤتى المسروقات يختار منها ما شاء ، ثم يبدأ الآخرون بأخذ ما يستحلونه من الحلي والذهب ، ثم توزع القطع الذهبية والفضية على المشاركين بالسوية ، وأصبح دينٌ أن كل من يموت فنصف ثروته للغضبان ، وكان كثير من الناس هنا هدفهم فقط الحياة ؛ لأن الطعام والنساء متوفرة ، وقد كانت علاقات الفلاحين وأهل القرى القريبة من بعض جهات الجبل طيبة ، ويدعموننا

بالخضراوات والحبوب ، وأشجار الفواكه تملأ الجبل والوادي ، ثم أصبح لدينا خدم وعبيد ومزارعون ، فقد كبرت مملكة الغضبان حتى خضع له في النهاية كل زعماء وادي السرحان من أوله لآخره ومن شرقه لغربه .. فأنشأ مجلسا لكبار القوم ، وحلقة السلاح لتدريب الأسرى الجدد ، أو المطاريد الجدد على آداب وقوانين الجبل .. فكنوز الغضبان كثيرة يخيل لي أن مغارة كبيرة تحتاج لها ، وقد يكون له أكثر من مدفن .

بعد هذا الكلام الكثير من عبسان قال سيف: أيها الأمير .. فعبسان يتصور أن الغضبان لم يكن يجد عناء ومشقة في إخفاء كنوزه وأمواله وما يستولي عليه ممن يموت أو سرقاته أو تآمره مع الملوك والطغاة .

فقال الأمير صقر: ما هو هذا التصور؟

فقال سيف : تحدثنا بذلك خلال هذه الرحلة إليكم من بلاد السبع عدسات إلى هنا .. فهو يرى أن نفقا كائن بين قصر الغضبان وأحد الآبار أو الكهوف .

فقال صقر باسما : لقد نقض رجالنا القصر حجرا حجرا ، واستعملوه في بناء الجدار الغربي ، ولم يبق من آثار القصر إلا القليل من الحجارة ، ولم نجد نفقا أو بئرا خفيا .

فقال عبسان: سيدي القائد ! فهم أثناء نقض الحجارة والقصر لم يكن جل اهتمامهم منصبا على مدخل سري أو سرداب خفي أيها الأمير .

فقال صقر مشجعا : ربما كان معك حق! غدا صباحا ابدءوا البحث .. فأنا سأرسل قريبا رسولا للملك قيس يعلمه بنقل كنوز هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق الجبناء ..

فقال سيف : إن شاء الله سأذهب بها أنا وجميلة، ومعها كنوز الغضبان وأموال أخي مرعي ؛ فأنا أريد رد تلك الأموال يا عماه .

ولما أراد القوم الخروج للنوم قال صقر: يا سيف كلمة وحدنا!

خرج جميع الجالسين ، وظل سيف وهو مستغرب لهذه الخلوة ، وسمع القائد يقول :اسمع يا ابن أخي .. أنت تعرف المعزة الجليلة بيني وبين والدك الملك ، وهو صديقي الأول في بلاد الرايات ، وأنا من الأوفياء لعرشكم العظيم .

فقال سيف وهو أشد استغرابا لهذا الكلام : هذا أمر لا يحتاج لتدليل يا عماه ! .. فقد شغلت بالي وروحي ما الأمر ؟!

فقال صقر : لا تقلق!.. أنا أحببت أن أتكلم معك ؛ لأرى رأيك في قضية دقيقة في نظري

فقال سيف : تكلم يا سيدي الأمير ؟ أثرت الفزع في نفسي !

فقال صقر : لا تخف أيها الصديق !.. أنا أريد أن أكلمك حتى أسمع رأيك قبل أن أتحدث مع الملك قيس.. والأمر بشأن الأميرة جميلة .

تبسم الفارس وقال : زواج إذن!

فقال صقر: أجل أيها الفطن زواج ولدي عقاب .. له هوى بالأميرة الشجاعة جميلة ؛ ولكنه يخشى أن تصده كما صدت الكثير من أبناء الأمراء والقادة ، وإنها تزعم أنها غير راغبة بالزواج ومنذ أن عدت إلينا والناس يتحدثون عن تعلقكم ببعض ، فأريد رأيك ورأي أختك قبل الإقدام على ذلك الأمر الدقيق .

قبل أن يذكر سيف رأيه حدث الأمير صقر عن لقائه بابن الأمير ماجد ، وعرضه عليه ابنته ، وأنه يفكر جديا بالاقتران بها ، فدهش صقر وقال : ألم تجد غيرها ؟!

فقال سيف : لحتى الآن لا .. وأعلم أن الفتيات كثر ؛ ولكن الرجل يريد أن ينسى ميراث أبيه وثأره ، وأن يعيش بأمان ورعاية الملك قيس وحمايته ، وهو كما تعلم لا دخل له بماضي وجرائم أبيه ، وأنا كما تعلم عشت ما يزيد عن عشرين عاما في هذا الوادي ، بين عتاة اللصوص والقتلة فقد لا أحتمل أي امرأة تعيرني غدا بهذا الماضي ، فأفتك بها أو أشوهها ، أنت تعرف وتسمع عن غضبي وحدة طبعي .. فزواجي من ابنة أمير فيه رضا لشرف العائلة والملك ، والفتاة تعرف من

هو جدها ، فلا مجال لديها لتعييري وتذكيري بأي ماض .. وفوق ذلك فقد رأيت الفتاة واستحسنتها رغم غرورها ، ربما لتدللها الزائد .

فقال صقر بعد تأمل: كلامك معقول!.. ودائما تؤكد أنك من أذكى وأكيس الرجال وتنظر للأمام .. والإنسان لا يستطيع أن ينخلع من الماضي ، ونساء بلادنا فيهن مثل هذه الصفة الرذيلة من التحقير والتعيير والتفاخر.. فنساء قبيلتي من النادر أن يتزوجن من رجال القبائل الاخرى سوى قبيلة الملك قيس ، ورغم جهد الوزير عقاب واشهار والدي لبغضه لهذه العادة ما زال شيوخ القبيلة يعترضون على ذلك التغيير..إنك نعم الرجل والفارس والأمير!.. فأنا أول ساع لدى والدك لتحقيق غايتك من الزواج من قمر ؛ ولكن تبقى أمك الملكة

فقال سيف مـفكرا: لا أظن أن حقد أمي موجود بـعد كل هذه السنوات الطوال ، والرجل قد مات ولم يؤذِها بعد اندحاره في المعركة الأخيرة .. وأمي بعيدة ، لقد حاولت تزويجي من إحدى بنات بلادها للبقاء عندها ، فرفضت أنا وجميلة أيضا .. نحن هوانا في بلاد الرايات بكنف والدنا الحبيب .. وربما أفكر أن أسكن في هذه القلعة منزويا عن المدينة ، فهنا وديان وصيد غزير

فقال صقر: لا أظن أن يوافق أبوك على ذلك .. فهو يفكر بأن يجعلك وريثه على العرش بدلا من روح الزمان أخيك من الملكة الشماء .

فقال سيف : أنا قلت وذكرت له أنني راضٍ بحياتي وحيدا حرا غير مقيد بأدوار وأشكال ، وليبق العرش للأمير روح الزمان .

فقال صقر : إنك شهم وجبار يا سيف ! .. المهم أرجوك أن تنظر في أمر الأميرة .. جس نبضها فإن كانت مصرة على عدم الاقتران برجل .. سأجبر وألزم ولدي على أن لا يفكر فيها .. أتعرف الأمير عقاب أنت ؟..

فقال سيف : نعم ، وجلست معه عدة مرات ، وهو فارس أسد ، وهو شبيهك شكلا وصورة ولا أدري أيشبهك شجاعة وقوة ؟ ـ وتبسم ـ ..ولكن أختي الأميرة لابد أنها تعرفه !.. ولابد أن عبلة ابنتك قد حدثتها عنه .. فهي الصديقة العزيزة والاثيرة لدى الأميرة .

فقال صقر : ربما حدث ذلك .. أطلب مساعدتك أيها الصديق البطل .

فقال سيف : أبشر يا عماه بكل خير ومساعدة .. وسأحاول إقناعها به.. فالزواج لابد منه مهما طال الزمن .

وعندما دخل سيف حجرته وجد الأميرة في انتظاره ، لم تذهب لمخدع النوم ، فحياها تحية الليل وقبل أن ترد التحية قالت بجرأة وابتسام : من هو العروس من أولاد القائد صقر الذي اختاره لي يا ابن أمي وأبي ؟!

ضحك سيف، وهو يعلم ذكاء وشجاعة أخته ، فقال ضاحكا: وما أدراك أن هناك عروسا ؟!

فقالت باسمة : لو لم يكن في الأمر عروس؛ لأبقاني عمنا العزيز؛ ليسمع رأيي !

فقال: إنك أذكى مني !.. هناك رجل يريدك حليلة وأما لأولاده إذا قبلت به ، والأمير الباسل يريد أن أتشفع له عندك قبل أن يخاطر في الأمر الدقيق كما يراه .. فإذا كان عند أختنا العزيزة ميل في الزواج منه .. فسيتحدث مع الملك مباشرة ، وأما إذا لم يكن لديها ميل فكأن شيئا لم يحدث

فقالت: عقاب بن صقر؟!

فقال سيف دهشا : ويحك أكنت معنا ؟! .. أكنت تسمعين لحديثنا؟!

فقالت : لا .. ليست عندي هذا العادة .. أنا أعرف عمي صقر حق المعرفة ! وأعرف أدبه وشجاعته وصداقته لأبي .. فهو لا يحب أن يكسفه أبي لمَ بينهما من الصداقة والاخوة ، ولا يريد أن يحرج الملك الذي أطلق لفتاته الحرية في الاختيار.. والأخت عبلة سارتني بذلك ..

فقال سيف : وماذا قلت لها يومذاك؟!

فقالت : ما تظن أنني قلت لها ؟!

فقال : يا أختاه !.. إني ناعس.. ليس عندي وقت للتأمل والنظر ، هل رفضت كما تفعلين كل مرة أم ...؟!

قالت : لا .

قال : لا ! .

قالت : نعم ، لم أرفض الأمير؛ ولكني قلت لها عندما يتزوج سيدي وحبيبي سيف قد أوافق على الزواج من الأمير عقاب بن صقر.

فقال : سبحان الله !.. إذن يمكنني أن أقول للأمير صقر مبارك ، وتقدم بكل قوة .. فالأمير سيف قريب العهد من الزواج ، وقد حدثت عمي صقر عن قمر ، فأيدني وصوب اختياري .

فقالت باستغراب :صقر!.. صوب اختيارك.. ويلك ماذا قلت له؟! فالأمير صقر لا يؤيد قبل أن يسمع رأي وقول الملك قيس ..

قام عبسان إلى أطلال قصر الغضبان الذي هدم ونـقلت حجارته وأعمدته لتشييد الأبراج والأسوار في البناء الجديد.. نظر هنا وهناك ، ورفع بعض الأحجار المتبقية، فلم يجد شيئا تحتها أخذ يتحرك في حدائق القصر ، ويتذكر أماكن جلوس الغضبان ، ويتبعه سيف وجميلة وبعض الغلمان من الخدم والرقيق ، وقال لسيف : رغم ابتعادي عن هذا المكان أكثر من عشر سنوات أيها الأمير وعن الغضبان عشم ، لا أظن أنه غير مكان الكنوز ، لابد أنه استقر إلى مخبأ ما .. ولا أرى أنه من الأماكن المعقدة .. فالأموال كثيرة ، وتأتي بين كل فترة وأخرى من السطو ومن الملوك والتجار مقابل عدم تعرض رجال الجبل لقوافل مدنهم .. ويخيل لي أن الغضبان لحبه الجم للمال واللؤلؤ والياقوت أنه لا يطمئن على ثروته إلا برؤيتها في كل حين ووقت .. فهذه البساتين كانت ضمن قصره الضخم .. انظر إلى هذه الأشجار العالية كان الغضبان كثيرا ما ينام ويرقد عندها في النهار بل يتناول غداءه عندها فلنسير إليها ..

فقال سيف: أجل .. هذا العرائش كان يحب المكث عندها أيام الدفء والصيف.

ومشوا نحوها ، أشجار كثيفة عالية في السماء تشكل بتشابكها مكانا ظليلا ساكنا إلا من أصوات الطير الصغير .. وبدا الموقع مهجورا منذ موت الغضبان ، فحتى سرير الغضبان ما زال في مكانه ، وقد تراكم عليه الغبار والتراب ؛ كأن أحدا لم يجلس عليه أو يجلس في هذا المكان أحد منذ مات صاحبه ، ربما خوفا من صاحبه الهالك أن يراه فيه .. لقد كان وحشا رهيبا موغلا في سفك الدماء .

فقال سيف : هذا سريره ما زال موضعه مذ هلك ..

قال عبسان : هنا يجب أن نبحث عن سرداب أو حـفرة .

فقال سيف : هل نرفع السرير ؟!

رد عبسان : لا أظن أن شيئا تحته.. فالغضبان كسول ، ولا يثق بأحد .. ولا بأس من فعل ذلك فلربما ينشط عند إخفاء الذهب والفضة ..

قام الغلمان بتفكيك تخت الغضبان ونقله من مكانه ، وضرب عبسان بالفأس الأرض عدة ضربات هنا وهناك لعلها تصطدم بتجويف وفراغ ،ولكن لم يحصل ذلك .

فقال سيف : لم أكن أشعر يوما ما بذكاء الغضبان يا أبا النهار.. كنت أرى ذكاءه فقط في قسوته وسفكه للدم .

فقال عبسان: بل كان ذكيا وشجاعا ؛ وإنما أدركته أنت في شيخوخته واستقرار ملكه ، وإلا كيف تملك على هذه الجبال ؟ وعلى هؤلاء الوحوش الأشداء ؟!

قالت جميلة : صدقت يا أبا النهار ! مهما أوتي الرجل من قوة البدن ، لابد من رجاحة العقل والفكر .

أخذ عبسان يتنقل في المكان ويضرب بقدمه الأرض ، وأحيانا بالفأس ، ثم اقترب من شجرة ضخمة الساق ، وأخذ يتحسس ساقها بيديه ، ثم انتقل إلى الجهة التي لا ترى من مكان جلوس الغضبان أو من الاضطجاع على سرير الغضبان ، وهناك وجد قرب الساق فتحة مغلقة بقطعة من الشجرة وعليها اوراق كثيرة متساقطة.. وجد ثغرة ينفذ منها رجل واحد ، فأخرج الخشبة المغلق بها الثغرة وقال فرحا : ها نحن وصلنا للكنز تعالوا !

فأسرع القوم ودهشوا للباب الصغير المصنوع بذكاء قرب ساق الشجرة وجذع الشجرة الكبيرة ، والذي تخفيه سيقان الأشجار القريبة بحيث تخفيه عن أعين الناظرين ، وتخفي من يقف أمامه ، أدخل عبسان بدنه وقال : أريد مصباحا .. فالمصباح المعلق عند السرير على الشجرة تلك هو مصباح الغضبان .

فقال سيف : يا له من ماكر ! فهو عندما يقف أمام هذه الفتحة يرى من يتحسس عليه ، ولا يراه أحد ، فالأشجار تلفه بجذوعها الكبيرة ، والذي يجلس في مقعده وعلى سريره لا يمكن أن يرى هذه الطاقة إنه يرى جذع شجرة ضخم .

أتى أحد الغلمان بمصباح ، وتسلل عبسان من الثغرة ، ووراءه سيف ثم جميلة.. هبطوا سلما من عند جذع الشجرة الضخم يدخل في جوف الأرض ، مشوا تحت الأرض مشوا وقتا ليسا قصيرا ثم أصبحوا داخل مغارة .

فقال عبسان: لا أدري كيف صنع ذلك الغضبان ؟! لابد أن الرجال الذين حفروا هذا النفق قد ماتوا ..!

تطلع القوم في جوف المغارة ، ولم يطل بحثهم ، فقد وجدوا صندوقين كبيرين ممتلئين بالمال وبعض العقود والجواهر والخناجر الذهبية .

فقال عبسان: لا أظن أن هذه فقط ثروة الغضبان ! بل وضعت للتمويه والخداع .. فعندما يجدها المتسلل يظن أن هذه ثروة الرجل فيقنع بها وينصرف .. إنه صاحبي ، وكان من أخبث وأمكر الرجال يا سيف ..

فقالت جميلة : صدقت يا أبا النهار .. فعندما يقوم أحدهم بمكر ضده ، ويصل إلى هذا السر ويجد هذين الصندوقين يظن أنهما هما كل ثروة الغضبان ، لقد كان يحسب حساب الغدر والتآمر على شخصه ، وكما قلت لا يثق بأحد .

واستمر البحث فوجدوا بابا مخفيا في المغارة فكسروه وتابعوا المسير في نفق جديد حتى وصلوا إلى كهف آخر ، وهناك وجدوا صناديق الغضبان قل عشرة قل أكثر .. صندوق فيه جواهر اللؤلؤ وآخر العقيق والياقوت .. الذهب .. السيوف والمدى والعقود وغير ذلك من الأموال الثمينة والتحف النادرة ..

ولما تأكدوا أن لا مخرج آخر ولا منفذ كروا آيبين ، فوجدوا الأمير القائد صقر واقفا أمام الشجرة ومعه الفرسان وهو في دهشة وخوف ، فبشروه بالوصول إلى الكنوز والدفائن ، فأمر بحفر

النفق ، ثم تساقط الغلمان والخدم وقاموا بإخراج أموال وصناديق الغضبان ، فكانت ثروة مذهلة للجميع ..



الزواج الأخير

لما وصلت كنوز وادي السرحان لبلاد الرايات كان يوم مشهودا في المدينة ، وتعجب الناس من كل هذه الأموال والدفائن التي جمعها ملك اللصوص بالسفك والقتل والسطو، ثم أصبحت ملكا لملك بلاد الرايات ، فكان الملك يشارك الناس تعجبهم وانبهارهم ، ويقول لمن حوله : كم قتلوا وسلبوا ونهبوا واغتصبوا وأهلكوا من البشر حتى يجمعوا كل هذه الأموال ؟! ثم هلكوا وماتوا ولم ينتفعوا بها ، بل جمعوها لنأخذها في النهاية نحن ، ثم سنورثها لذاررينا .. لله في خلقه شؤون ! هم يجمعون ونحن نستفيد منها ونتمتع فيها ، هكذا حال اللصوص .

وقدم وفد بلاد الأكباش وأخذوا ما يتذكرونه من أموالهم ، وزادهم الملك قيس كثيرا وأمر ببيع المجوهرات والتحف النادرة إلى تجار الذهب والجواهر ، ثم أمر بتوزيع الأموال على الجنود والمحاربين والفقراء والأيتام في البلاد ، فنعم هؤلاء بخيرات وكنوز اللصوص ، وفرح الملك بموافقة الأميرة جميلة على الزواج من ابن صديقه العزيز الأمير صقر ، وأعلن النبأ في القصر والبلاد ، وكأن أحدا لم يكن يصدق أن الأميرة سوف تتزوج بهذه الطريقة البسيطة ، فكان يخيل إليهم أنها تنتظر الاقتران بملك كبير أو فارس نادر المثال ، وتأخر حفل القران حتى يأتي الأمير ماجد وابنته قمر ، فقد قبل الملك قيس اختيار الأمير سيف وأعلمه أنه ليس بينه وبين الأمير ماجد ثأر وحقد ، وأن قصة الماضي هي ماضي وأنه لم ير الأمير ماجد ذاك سوى بضع مرات ، إنما كانت مشكلته مع أمه الملكة سُلمى ولما علمت سُلمى بخطبة الأميرة جميلة أتت بوفد كبير من بلادها للتهنئة والتبريك ، ومعها الملك الشاب مرعي وتصافحت مع ابنتها ، وباركت لها هذا الاختيار والزواج ، وقالت : إن الأمير صقر رجل مقدام وكل أسرته ووالده من قبل كذلك وهو من خير الرجال ، لقد كان نعم الأخ والصديق لوالدك الملك ، فلا أظن إلا ابنه عقاب مثله مبارك لك أيتها الأميرة هذا الاقتران .

قبلت جميلة رأس أمها ، واعتذرت عما سببته لها من ضيق ذاك اليوم ، وقالت : أشكرك يا أماه ! مع معرفتي أن هواك كان أن أتزوج في بلادك ؛ ولكني متعلق بهذه البلاد .. وقد كلفني سيف

أن أحدثك عن عروسه .

فقالت الأم: هو الآخر وجد عروسا.. رائع هذا! أخبريني من هي عروسه الحسناء ؟ .. هل هي عبـلة ابنة صقر؟!

فقالت جميلة : يا ليت ذلك كان! .. لا ، إنما هي قريبة لك .

فقالت الملكة بحيرة واستغراب: ويحك !! قريبة لي .. وهل لي أقارب سواكم ؟

فقالت جميلة : أتذكرين ابن خالك الأمير ماجد؟!

جفلت الأم وحملقت في عيني جميلة وقالت بعد صبر وذكريات : أو أنساه ؟! .. ألم يكن هو سبب عذابي ؟

فقالت جميلة: ولكن هذا العذاب جعلك ملكة يا أماه وأم ملك وزوجة ملك !

فقالت الأم : ويحك مرة أخرى !.. وهل أنسى روح أبي واخوتي ؟!

فقالت الأميرة : هذا ماض قديم .. والأمير ماجد نـفسه قد مات وهلك .

تنهدت الملكة وقالت : خشيت شيئا رهيبا ..

فقالت جميلة: يا أمي عليك بنسيان الماضي .. فالرجل قد هلك وترك ابنا اسمه ماجد وبنتا .. ولـماجدهذا ابنة جميلة ، وهبها والدها لسيف لينسى الجميع التاريخ القديم .. وقد رضي الأمير سيف الزمان بها حليلة لحاجة في نفسه ..

أظهرت الملكة الامتعاض والضيق ، وقامت جميلة بإقناعها بالرضا ، وأن سيف قبلها ، ويرى أن حياته وسعادته ستكون معها ، ولما جلست الملكة مع سيف حدثها بالكلام الذي ذكره أمام الأمير صقر، وذكرناه في وادي السرحان ، فوجدت الأم أن في كلامه كثيرا من الإقناع والصواب ، فباركت له ذلك الزواج .

وبعد أيام أتى الأمير ماجد وحاشيته وابنته العروس ، ودخلوا على الملك قيس وأبدى أسفه واعتذاره عن أفعال أبيه ، فعانقه الملك قيس وخلع عليه وقال : يا ولدي أنا لم يكن بيني وبين أبيك أي عداوة أو حقد .. نحن طلبنا الأميرة ذاك الزمان ، ووافق أهلها ، فكانت مشاكله مع

قومه ، وأراد منع هذا الزواج وجرى ما حدثك به ، وأنت الآن صهرنا ونسيبنا تعالي يا قمر فاقتربت قمر الحسناء من الملك وقبلت يديه ومسح على رأسها وبارك لها بعروسها سيف، وجرى الصلح بين الملكة سُلمى وابن ابن خالها ماجد ، وقالت الملكة : كما قالت ابنتي جميلة الماضي يبقى ماضي ، ولو رضي والدك بزواجي من الملك قيس ، ولم يخطفني ما جرت كل هذه الأحداث التي عايشناها ، وأنا لا أحمل لكم أي ضغينة والذي فات مات والله يغفر للجميع ! فانحنى الرجل مقبلا ليد الملكة وشاكرا لعطفها وحامدا لله على الساعة التي لقي فيها سيف وجميلة .

وكانت قمر تكاد تطير من الفرح لمَ تحقق لأبيها من العفو والصفح ، وهو البريء من أفعال أبيه وفرحت أكثر عندما تم عقد زواجها على الأمير الباسل سيف بن قيس ، وعلى أثر ذلك أعلن الملك الأفراح سبعة أيام في بلاد الرايات .

وتوافد الأمراء والفرسان للمشاركة في هذا العرس الكبير الذي أقامه الملك قيس لولديه الأمير سيف الزمان والأميرة جميلة، واحتفل الشعب كله بزواج الأمراء ، وأطعم الفقراء ، وكساهم الملك ، وتصدق بالمال والخير الكثير ، حتى أن أنباء الإحسان الذي بذله الملك في بلاد الرايات وصل للمدن والقرى المجاورة ، فهرع الضعفاء والفقراء إليها ، ثم تم زفاف العروسين بسلام وأمان وبهجة .

❋❋❋

وبعد سنة من هذا الزواج السعيد كان الأمير سيف يجلس في حديقة قصر الأقواس وبين يديه طفلة جميلة ، ويقول لمن حوله : هذا عروس جميلة يا ابنة الملوك وأخت الملوك !

فترد الأميرة بابتسامة حسناء: لقد وافق الأمير عقاب على أن تكون هذه الجميلة لولدك أسد !

وأخذت تعانق وتقبل ابن أخيها الذي بين يديها بحب وسعادة ، ثم قالت : الصغيرة تنتظر هدية خالها .. فالملك قيس قد أهداها تاجا صغيرا من الذهب وحبات اللؤلؤ .

فقال سيف باسما ومداعبا : أنا سأهديها فلذة كبدي أسد الزمان .. ألا يكـفي هذا هدية؟!

فقال الأمير عقاب : إنه أجمل هدية يا أبا أسد! .. فـهند لكم إن رضي بها أسد عندما يصبح أسدا هصورا كأبيه .

فقال سيف بعدما أثنى على صهره الثناء الحسن : إننا زائرون لعمي ماجد، فما رأيك أبا هند بمرافقتنا في هذه الرحلة ؟ .. فالأميرة جميلة لها سنة لم تخرج من القصر منذ حملت بزوجة ابني وهي محبوسة في القصر.

فالتفت عقاب لزوجته وقال : الأمر لها .. فهي مليكتي .. فـجميلة كنز .. فكثير من الأحباب كانوا يتخوفون من زواجنا ، ويظنون أن مصيره الفشل ، فقد كانوا يرون في الأميرة رجلا بثياب امرأة وليست أنثى! ولكنها خيبت ظنون الجميع .

وأخذ الجميع بالضحك ، وقالت جميلة : ما دام أن الأمير الحبيب ترك الأمر لي .. فأنا أيضا أقول إذا وافق زوجي الحبيب على هذا السفر فأنا موافقة .. وأيضا لا تكـفي موافقته وحده بل يجب أن يوافق عمنا الكبير صقر فأنا أحبه وأحب موافقته .

فقال عقاب : ووالدي يحبك جدا ومعجب بك ، ولم يكن يصدق أن تكوني كنته لِـمَ اشتهر عنك من رفض الزواج والفتيان .. فهو يحبكم ويحب سيفا حبا كبيرا ، ويسر بالجلوس معه .

فقال سيف وهو ينادي على الخدم والمراضع : تعالوا خذوا هؤلاء الأطفال .. وهيا بنا نزور الأمير الشجاع صقر بن غراب .

سعد الأمير صقر بلقائهم وأظهر سعادته وسروره ، وقدم لهم أجمل العشاء ، وقال بعدما عرف سبب مجيئهم : بل سأكون أولكم في هذه الرحلة ؛ فأنا أحب صحبتكم وصحبة ابنتي جميلة الطيبة !

قبلت الأميرة رأس الأمير وقالت : نعم العم أنت يا عماه !

وبعد عشرين سنة أيها الاخوة الكرام تم زفاف الأميرة هند بنت عقاب وجميلة على الأمير أسد الزمان بن الأمير سيف الزمان وقمر .. وهذا آخر ما نعلمه من قصة الأمير سيف الزمان وأخته الحسناء جميلة بنت قيس ملك بلاد الرايات .

قصص وحكايات الفوارس			
١	حسان والطير الذهبي	٢	الأمير جفر
٣	عبدالله البحري	٤	رمان
٥	الأميرة نهر الأحلام	٦	زهلول في ارض الجان
٧	مملكة مالونيا الملك بربار	٨	قطبة بن سنان
٩	حصرم بن سلام	١٠	القصر المهجور
١١	نمير وزعيط في جزائر البحر	١٢	انتقام الفارس شهدون
١٣	الأميرة تاج اللوز ووليدها	١٤	الفارس جبل بن مجدو
١٥	سيف الزمان وجميلة	١٦	حكاية ريح البحر
١٧	الملك ابن الراعي	١٨	مدينة نجوان
١٩	الملك زرارة والملكة سفانة	٢٠	أبناء الملك سماك

سيف الزمان وجميلة



تزوج الأميرة المخطوفة بعد إنقاذها من عصابات جبل ضراب

وشرع معها من الانتقام من القتلة

ويوم تحقق النصر خطف ابنه سيف الصغير

وبعد ربع قرن عرفوا أين يعيش الأمير سيف المخطوف طفلا

فاذا هو كبير اللصوص في وادي السرحان

فكانت رحلة من الأميرة جميلة للسرحان

وعاد الأمير لبلاده أميرا وبطلا وشجاعا

وأعاد الكنوز المسروقة لأصحابها

وحققا الأماني التي حلم بها

تمتع بقصة سيف زوابع وشقيقته الفارسة جميلة!

